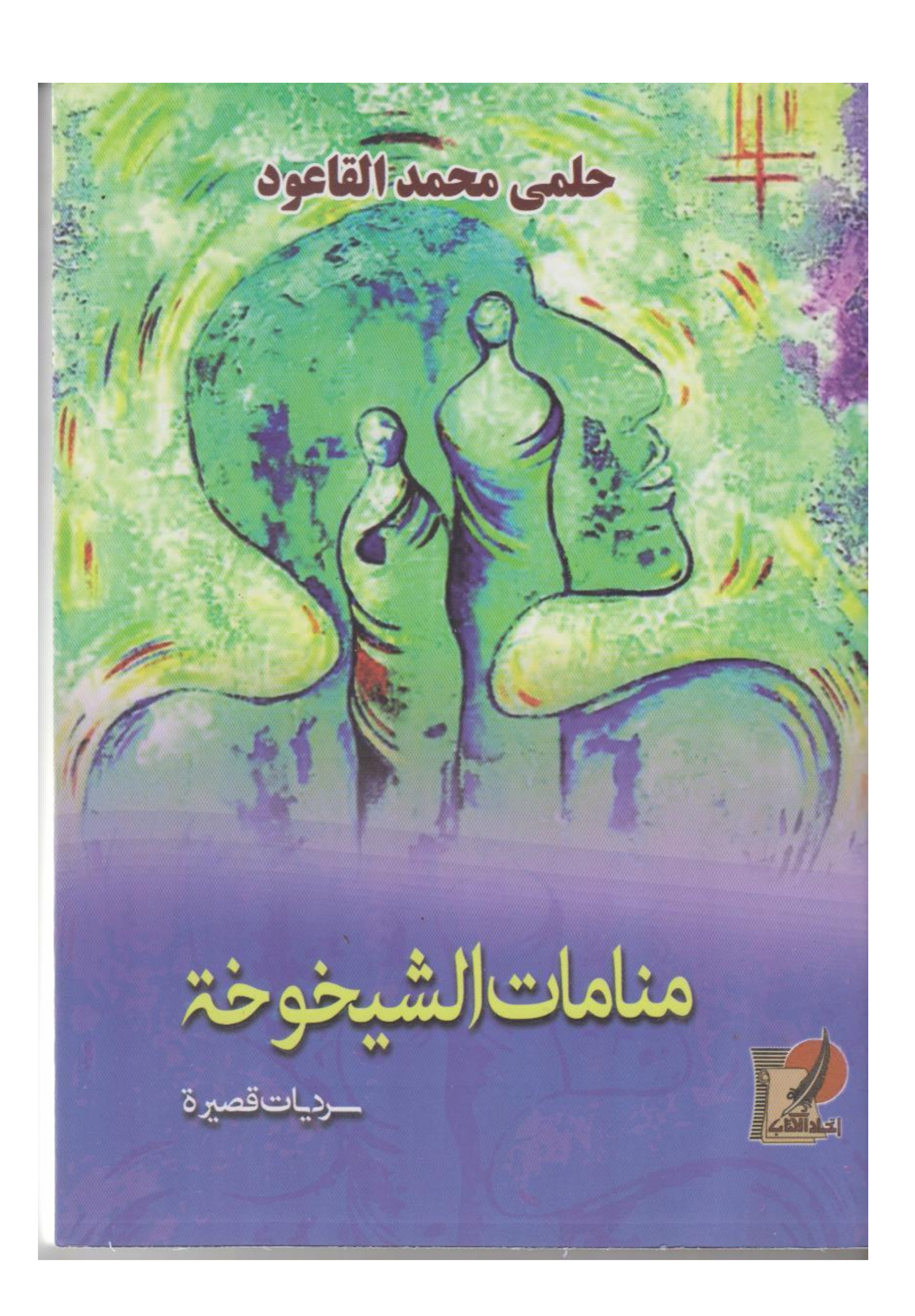

حلمي محمد القاعود
منامات الشيخوخة
سرديات قصيرة
اتحاد الكتاب

حلمي محمد القاعود

منامات الشيخوخة

سرديات قصيرة

١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

مناماث الشيخوخة
سردياث قصصية
حلمي محمد القاعود
دار ميتا بوك للطباعة والنشر
هاتف : ٠٢٢٦٦٦٢٢٠ / ٠٥٠
٠١٢٢٢٦١٤٣٦٣ - ٠١٠٠٥٥٨٤٠٩٨
البريد الإلكتروني : darmetabook@gmail.com



رقم الإيداع بدار الكتب :١٤١٤٨/٢٠٢٠
I.S.B.N: 978-977-6822-81-8



العروس

فرحت به كما لم أفرح من قبل. غاب عني طويلا، ومنذ موته لم أره في الحلم إلا مرات قليلة. كان يجلس في مكان يشبه مفترق الطرق يرتدي طاقيته البيضاء اللامعة، وجلبابه البلدي الذي يزين طوقه القطان الحريري يمنحه شيئا من المهابة. كان وجهه الأسمر يضيء بابتسامة حانية وينفرج ثغره عن أسنانه البيضاء التي تشبه اللؤلؤ. كان أمامه خمس بطيخات خضراء عليها خطوط متعرجة داكنة. ابتسم حين رآني. لوحت له بيدي بينما كنت أعدو في الصباح مع زملائي مرتديا قميصا وبنطالا وحذاء خفيفا لنلحق بالمدرسة قبل أن يغلق الناظر البوابة ويضعنا في كشف الغياب..

رأيتني أجلس في شبه جزيرة صغيرة، والنيل يرتفع ماؤه من حولي. المياه الحمراء أو البنية المحملة بالطمي تتلألأ تحت أشعة الشمس. ورائحة الطمي تسكرني والمراكب الضخمة تنساب مع التيار بأشرعتها المثلثة البيضاء.

كان الطلاب أمامي في مدرج واسع جدا، وعددهم كبير. تحدثت إليهم في مكبر الصوت. وسألتهم بصوت حزين واهن :

- أين خبّأتم النيل ؟

رأيت وجوههم تدور يمينا وشمالا في صمت مهيب.

قلت لهم :

- نريد أن نلقي بعروس النيل في عيد الوفاء .

أفقت من نومي على تصفيق حاد ، وصفير صارخ يقرع أذني !

الجائزة

لم أتبين ملامحه جيدا. كان في الحلم يرتفق ذراع حفيدته التي كبرت وطالت. بدا عليه السرور والمودة .

سألني باهتمام :

- انتظرتك طويلا ، ولكنك لم تأت!

قلت له :

- إننا لم نتفق على موعد.

قال مؤكدا :

- لقد اتفقنا ويبدو أنك نسيت.

ثم أردف مبتسما وبيده علبة من القطيفة الحمراء لم أر مثيلا لها من قبل:

- لدي خبر طيب !

قلت متعجلا:

- هاته !

قال في انتشاء :

- لقد فزت بالجائزة !

أبديت استغرابي ودهشتي، وقلت بغير مبالاة :

- إنني لست من المحظوظين!

ضحك ورفع إصبعه إلى السماء ، وقال :

- إنها من عند حبيبك!

غمرتني الفرحة، ووجدتني شابا أقود سيارتي، ولا أتوكأ على العصا، واستيقظت وصوت المحرك في أذني يشير إلى أنه ما زال يعمل.

الجمعية

رأيتهم في منامي يجلسون على المنصة. أصواتهم الخشنة تعلو. نبت لكل منهم قرنان وتحولت وجوههم إلى ملامح بقريّة مستطيلة. سمعت النعير يتردّد وهم يتناقشون ويتجادلون. آه .. إننا في اجتماع الجمعية العمومية. امتلأت المقاعد من حولي برءوس خرفان وماعز وبقر مسلول، تنبعث من الأفواه أصوات تتقاطع مع أصوات الجالسين على المنصة.

- جدول الأعمال يا حضرات !

دق المنصة بقبضته. ازداد الصخب، وضاع نعيره في الهواء:

- البند الأول : المصادقة على ميزانية العام الماضي.

لم يستجب أحد واشتد النعير الذي تحول إلى عواء.

بنفاد صبر قال الرئيس :

- حضرات السادة سأرفع الجلسة إن لم تتوقف الجلبة!

كان هناك فحل بقريّ يملأ القاعة بنعيره الحاد. ضاع صوته في زحام الأصوات، ولكني ميزت بعض كلامه عن اللائحة والقانون والمعاشات ..

نظرت إلى يميني وجدت صديقي ياسين الفيل. قمت لأتكلم

وأحاول المساعدة في استعادة النظام . لكن ياسين جذبني لأجلس، وهمس في أذني :

- لا تتعب نفسك، هم اعتادوا ذلك. كل منهم يبحث عن مصلحته فيصيح بأعلى صوته.

ثم دعاني للنهوض ومغادرة المكان.

مشيت على كوبري أبو العلا. شاهدت فريد شوقي يقبض على سعاد حسني كي لا تلقي نفسها في النهر هربا من زيجة فاشلة في فيلم قديم..

تلفتّ لم أجد "ياسين". ذهب وتركني. أشرت إلى حافلة صغيرة لأذهب إلى باب الحديد وأعود إلى قريتي. لم تتوقف الحافلة. قلت أمضي على قدمي حتى تلحقني حافلة أخرى.. مضيت في الزحام، واستيقظت لأجد مجلدا كنت أطالع فيه قبل النوم مفتوحا على وجهي!

***

المعرض

رايت كاني أمضي في مدينة كبيرة أعرفها. لست متأكدا من اسمها. هل هي الإسكندرية أو المحلة الكبرى أو دمنهور. سمعتهم يقولون إنهم سيقيمون معرضا دوليا يتقاطر عليه المشاهدون من أركان الدنيا..

لفت نظري انهم ينصبون ما يشبه اللافتة أو الإعلان أو الواجهة الضخمة التي سيكتبون عليها ترحيبا بالزائرين.

قلت في نفسي :

" أما كان الأجدى أن يوزعوا ثمن هذه الواجهة على العمال الفقراء؟هل لديهم فائض كبير من المال لينفقوه في هذه البهرجة؟".

غادرت المكان وأنا أتحسس جيوبي وأفكر كم بقي فيها من نقود. كنت أريد أن أشتري شيئا نسيت ما هو..

قابلتني طفلة صغيرة في عمر رقية. ابتسمت لي ورفعت يديها وهي تقول : السلام عليكم يا جدي .

فرحت بها ، وانطلقت إليها لأحتضنها وأقبلها، ولكني لم أجدها .. درت حول نفسي بحثا عنها، أحسست الدنيا تغيم وتتلاشى الأشياء .. استيقظت ثم رحت اغط في نوم عميق!

غانم

غاب عني أسابيع ، وكلما سألت عنه قيل لي : إنه بخير. مجرد متاعب وقتية . وفي الحلم رأيته قريبا مني في المسجد. كان يفصل بيني وبينه أحد الأعمدة . لون جلبابه أبيض يميل إلى الاصفرار، وبدا نحيلا ورشيقا .

قلت لنفسي في الحلم سأعتب عليه طول الغياب . لو كنت أستطيع صعود السلم في بيته كنت فعلت وزرته، ولكنني لا أقدر. سلمه شبه واقف ومفاصلي لا طاقة لها بسلم واقف يؤلم ويوجع .

وقلت لنفسي سأذكره بأيام زمان حين كان طفلا صغيرا، وكنت أحمله على يدي، وأضاحكه ثم أضمه إلى صدري ، وأضفت إلى اسمه كلمة " أبويا " تعبيرا عن زيادة المحبة فصار الناس ينادونه " أبويا غانم " حتى كبر وصار أبا يحمل الطيبة والمروءة والشهامة أني توجه ..

وقلت لنفسي وأنا في انتظار قيام الصلاة: سأفكره بمراحل حياته المختلفة في المدرسة والجامعة والعمل وتكوين الأسرة والمسرات والأحزان التي مرت .

نظرت ورائي حين قامت الصلاة. لم أجده ، فغاص قلبي إلى قدمي !

رأيتني جالسا على مصطبة البيت، وحولي حفيداتي، وهو يضاحكهن ويلعب معهن، ويسألني أن أشتري لهن آيس كريم !

أيقظني من النوم صوت مكبر الصوت في المسجد ينعاه. استرجعت ورحت أمسح دموعي على سقوط قطعة من كبدي!

مصر

رأيتني أصلي الجمعة في مسجد المستوصف القريب من البيت . سألني شخص في الطريق :

- لم لا تصلي في المسجد الكبير ؟

- لأن سلمه عال، ومسجد المستوصف بغير سلالم .

كنت أشرح لمحدثي متاعبي الصحية، وفجأة ظهر على المنبر بعمامته الغريبة ونظارته الأغرب؛ وهو يحكي عن مصر التي لا يجوع فيها أحد وكان عنوان خطبته مصر في القرآن والسنة؛ كما همس جاري في أذني وأنا أتهيا للجلوس على دكة العجائز .

كان الأمنجي يقول كلاما إنشائيا لم أفهم منه شيئا، ولكنه كان يخطئ في خطبته كثيرا . قلت لنفسي :

- يدّعي أنه يحمل الدكتوراه في النقد الأدبي، فكيف يخطئ في النحو والصرف والتعبير ؟

رأيت عمامة أخرى تنافسه في رفع المجرور ونصب المرفوع وتخطئ أخطاء فاحشة في قراءة الأيات الكريمة، وجاء سيدنا بخيزرانته يهددنا بالمد على الأرجل لمن يلحن في القراءة. سيدنا كان يرتدي في البيت طاقية فلاحي ولا يرتدي العمامة الجميلة التي يراه الناس بها في

الخارج .وبهدوء ، كان يهتف بابن أخيه :

- يا شوقي . هات الولد . ارفع رجليه ..

تهوي العصا ويرتفع الصراخ. لا عذر لمن يلحن. أنكمش في مكمني بركن الغرفة، بينما الأمنجي ما زال يلحن ويدعو لسيِّده بالنصر على الأعداء .

على شاشة التلفزيون كان الشيخ الشعراوي يرتجل دون ورقة ويفسر آية عن المنافقين، ولكن نشرة الأخبار كانت تعلن قرارا بضرورة الكلام من ورقة مكتوبة موحدة في جميع المساجد .

رأيت محمود شكوكو يضرب لبلب القلم السادس في المستشفى، ويجري فوق الترل ، ويهرب خارجا من الباب الواسع ، وعنتر يجري بجسمه الضخم مقتفيا أثره ويسألني إن كنت قابلته ؟ فأيقظني العطش الشديد!

الأصلع

أطل في نومي بصلعته اللامعة ونظارته الغامقة ووجهه الكالح الكئيب فوق مقال نشرته جريدة سيده الحاكم. كان يمدحه ويشيد به لأنه عفا عن رفيق له في الخدمة. كانت حروف المقال تبدو مثل الضفادع الصغيرة تتحرك على هيئة سرب يمينا وشمالا، وتنق بصوت مزعج. أزحتها بيدي فهرولتْ مثل ماء الغسيل نحو بلاعة الشارع، وأخذت تترسب فيه بسرعة فائقة .

ظهرت صورة مقال آخر لبقرة من نوع الفريزيان. والعجيب أنها أيضا تكتب عن الأفلام والدولارات !

كانت تسبح بحمد واحدة منهن وتشيد بأدائها لأدوار الإغراء في فيلم رخيص، وتمدح أنوثتها الباذخة المستمرة مع أن عصرها آذن بالغروب. قال لي زميل في الصف الخامس الابتدائي :

- ما شكل السينما التي يتحدثون عنها على المصطبة؟

قلت له :

- اناس يتكلمون على الحائط!

- وهل هم أحياء؟

لم أجب على سؤاله، ورأيت صاحب الصلعة اللامعة يهوى ساجدا على قدميه يقبل حذاء شخص عملاق لم يظهر غير الجزء الأسفل من بنطاله . وجدتني أرفعه من قفاه ؛ فتلاشى ولم أجد له أثرا .

الجنة

رأيتها تسحبني بيدها الحانية في الحلم. فرحت لأني أذهب معها إلى سوق السبت . السوق جنة الصغار. يرون فيه ما لذّ وطاب من الفواكه التي يشتهونها ولا يستطيعون الحصول عليها .

كانت غايتي في السوق فرشة عم محمد حبيب. لديه في الصيف العنب والبلح والمشمش والبطيخ. وفي الشتاء الموز والرمان والبرتقال واليوسفي .. قالت له أمي :

- هات نصف كيلو عنب يا أبا محمود ؟

مدّ يده ببلحة سمراء إلى يدي. اغتنمتها جذلا مسرورا وطوحت بها إلى فمي على الفور وتذوقت حلاوتها المسكرة بامتنان .

كان يقف بالقرب منى شخص يبيع زوجا من الحمام ، ويساوم عليه بأربعة قروش – خمسة - ستة .. عدت مع أمي لأطلب منها نصف جنيه كي أشترى كيسا من الشيبسي، ولكنى رأيت موظفا في مجلس القرية يخبر بائع خضار أنهم أصدروا قرار إزالة لعم محمد حبيب، تعلقت به وقلت له بحزن :

- إنه يجمع فرشته وأقفاصه بعد السوق، لم يبن دارا على شاطئ النهر !

نظر إلى باستغراب واستهانة ، ومضى ، ولم أجد أمي ..

سباحة

عبرت النهر سباحة ذهابا وإيابا. وقفت أرتدي ملابسي التي خلعتها على الشاطئ . كنت مفعما بنشوة الانتصار في تحقيق خطوة تاريخية. في الحلم كنت أجدف بذراعيَ وساقيَ واتحرك بيسر وسهولة مع أني لم أنزل الماء في طفولتي وصباي. كانت أمي تحذرني من الاقتراب من النهر. أجلس على الشاطئ حتى تنتهي من غسل المواعين أو الملابس، وأقضي الوقت في مشاهدة الناس والحيوانات والأطفال الآخرين الذين يسبحون، ويقطعون مسافات طويلة تقترب من منتصف النهر. أنبهر بهم وبسباحتهم، وفي داخلي حسرة لأني أقعد على الشط ولا أشارك معهم.
كانت أمي تقول إن الجنّيّة تختار عريسا من الأطفال الذين يسبحون وتذهب به بعيدا في أعماق الماء، ولا تتركه يعود إلى أمه مرة أخرى. هل تريد أن تبعد عن أمك؟

حين كبرت وذهبت إلى البحر للاصطياف لم أبعد عن الشاطئ كثيرا. كان زملائي يسحبونني وهم يمزحون لأدخل إلى الأعماق؛ فأعود سريعا، ولكني في الحلم كنت أستمتع بالسباحة وأتمهل حتى يبلغ الجهد مبلغه. أصر على عدم التوقف عند الجزيرة التي في المنتصف. النهر عند قريتنا يتسع مجراه أكثر من اي مكان آخر، ويتبارى

الأولاد في الوصول إلى الجزيرة قبل أن يكبروا. الكبار وحدهم هم الذين يصلون إلى الشاطئ الآخر ويعودون بعد أن يأكلوا هناك بطيخا وعجورا وجوافة.. وقد يأتي بعضهم ببطيخة يعتمد عليها سباحة في طريق العودة .

بعد أن ارتديت ملابسي ، وجدت أمي تبتسم لي ويشرق وجهها بالبهجة والنضارة، وتتعوذ خوف الحسد، وتقول لي :

- لا تخبر أحدا حتى لا تصيبك العين !

في طريقي إلى البيت وجدتني أجلس في فصل بإحدى المدارس وأكتب عنوان الدرس على السبورة والتلاميذ يرددون نشيدا قديما :

اسلمي يا مصر إنني الفدا..

واستيقظت على إيقاع يثير الشجن !

شروخ!

قلت له وأنا أزوره كالعادة حين رأيت بيته ينتقل من جنوب القرية إلى شمالها :

- كيف حال البيت ؟

- الا ترى الأساسات الخرسانية ؟

وصرف وجهه عني، كان يبدو عليه الشحوب وعلامات التأثر.

هرولت مسرعا إلى البيت المقام على الأرض الزراعية، كانت الزراعات الخضراء تبدو نضرة وجميلة والبيت يظهر كحارس دائم لها. نظرت أسفل الجدران فوجدت شقوقا واضحة في الكتل الإسمنتية. أخذت ساقا من قش الأرز الجاف وأدخلتها في الشقوق فوجدتها تصل إلى نهاياتها. عمّني الحزن والأسى ..

لا أعرف كيف ناقشت الأمر مع صاحبي. هل تحدثت معه عن تأثير مياه الري في الحقل على الأساسات والبيت كله؟ هل تسرب الرشح من خزان الصرف الصحي؟ تركني صاحبي واختفي بين مجموعة من الناس لم أتبين ملامحهم.

رأيتني أقف على الجسر وأنادي على سيارة لتنقلني إلى

مكان لا أتذكره. ضاعت ملامح السيارة ووجدتني في بيتنا القديم أقرأ كتابا قديما عثرت عليه بين أوراق جدي لأمي.. وبسرعة غريبة ضاعت معالم الصفحات وحروفها، ولكن رائحة الكتاب الجميلة والمميزة ظلت في أنفي حتى استيقظت تهزني شروخ الأساسات!

دمشق

سألت نفسي في الحلم :

- ما الذي جاء بي إلى هذه المدينة الغريبة ؟
- أنت غريب؟

باغتني بسؤاله رجل يسير بالقرب مني في الشارع. قلت له :

- أنا مصري .

تأمل الرجل ملامحي السمراء، وقال:

- لا بد أنك صعيدي!

قلت له مستغربا :

- ليس كل أسمر صعيديا. أنا من الوجه البحري ، وفلاح أزرع واحصد .

ابتسم الرجل وتركني ومضى. كنت جائعا فبحثت عن محل يبيع الطعام. وجدت مخبزا يتزاحم الناس أمامه . قلت أشتري خبزا أولا، ثم أبحث عن غموس .اتسع الشارع والتوى. مضيت على غير هدى، ودخلت دكانا استفسرت من صاحبه عن اسم الشارع والبلد. قال صاحب الدكان: هذه دمشق ، وهذا شارع نوري باشا.

قلت له :

- إني أبحث عن صديق لي اسمه فاضل السباعي .

رحب بي الرجل وقال لي وهو يعبر بيديه عن شيء لا أعرفه، وأبدى أسفا :

- لو أنك جئت قبل يومين لقابلته .

أبديت جزعي، فهدأني الرجل، وقال لي :

- إنه بخير. لقد سافر إلى أقاربه في حلب !

صرخت ، وهتفت به :

- حلب تحترق.. حلب تحترق !

قال لي :

- لا تخف إنه يعرف الطريق جيدا ولن يصيبه أذى!

رأيتني أجلس مع صديقي فاضل في معرض القاهرة للكتاب ونحتسي الشاي، وهو يداعب حفيدته - ابنة ولده فراس، وجاء أحد أعمامه يدعوه لزيارته في البيت فقلت لهما:

- أستأذنكما لأني مسافر إلى قريتي والمسافة بعيدة .

اختفى فاضل وحفيدته عن عيني، وابتلعني زحام المعرض. وصحوت على طنين الزحام وأصوات المتزاحمين!

رحيل

قمت بعد نوم متقطع وصورته لا تفارق مخيلتي. منذ عشرين عاما لم نلتق. كان يومها في عنفوانه، يقارب الأربعين، يمتلئ حيوية وإخلاصا ورضا، تشعله المثالية والرغبة في الإصلاح وصناعة غد أجمل مفعم بالتقدم والتطور والسلام .

قال لي في الحلم:

- أنا عاتب عليك.

تطلعت إليه مستفهما، فقال:

- لم تزرني في السجن!

شعرت بشيء من الألم والأسى، وقلت في نفسي: كيف أواجهه بالحقيقة المرة وهو الذي كان يأمل أن أخفف عنه وأتدخل من أجله. ولما رأيت ملامحه تشي بحزن وخذلان هتفت به :

- لا تغضب . أصارحك أني خفت عليك.
- مم؟
- من المتاعب. لو عرفوا أن لي علاقة بك.
- كيف؟

رحت أشرح له وهو يصغي.. فجأة التفت حولي لم أجده .

غاب في سحابة بيضاء شفافة، وترامي إلى سمعي صوته قادما من بعيد يودعني، وهو يبتسم ملوحا بيديه ، قائلا: إلى اللقاء. حزنت لأن قواي لم تسعفني لأودعه في جنازته إلى برزخ الانتقال إلى عالم الخلود !

حين استيقظت رحت ابحث عنه كأنه كان يجلس إلى جواري ويؤنسني بحديثه الهامس الوديع ..

الجسر

كأنني في الحلم كنت أسير في شوارع اسطنبول. رأيت جسر أوزال المعلق وهو أعجوبة من أعاجيب الهندسة المعاصرة تشير إلى صبر الأتراك ودقتهم وإتقانهم . ضاق الجسر بعد اتساع، واكتظ بالناس. كان أحد أطفالي في يدي. ورأيت قبل أن أدخل الزحام خلقا كثيرين يرتدون ملابس غريبة بالإضافة إلى ملابس بلدية مصرية، وبرز من بينهم شخص من قريتنا أحتفظ له بذكرى غير طيبة. لم أقترب منه ولم أنظر إليه. وأظنه لم ينتبه إلى وجودي ..

كأن الجسر سقط طرفه الموصل إلى الجانب الأوربي، وأصبحنا في الماء. الناس يخوضون لجة الماء ويمضون دون أن تبتل ملابسهم . طفلي كان بيدي اليسرى ، وأنا أخوض العباب الذي وصل حتى ساقي. لم يكن الماء عميقا حيث نمضي، ولكننا نفاجأ بمناطق عميقة نسبح فيها بأذرعنا، ورأيت أحيانا كرة تحت ذراعي اليمنى اعتمدت عليها في رفعي إلى سطح الماء. الولد في يدي اليسرى والشاطئ يغيم أمام عيني ..

وجدتني أعود إلى مسجد أبي أيوب وأجلس تحت الشجرة الضخمة المعمرة في ساحته. التفت أبحث عن الولد. لا أدري أين ذهب. كانت عصاي التي اشتريتها من سنوات بعيدة من أحد المحلات أمام أبي أيوب في يدي، تذكرت المكان الذي تمزقت فيه مفاصلي وأنا أهبط سلم المطعم الذي تناولت فيه الإفطار ذات صباح، وصرت من لحظتها أتوكأ على العصا، استيقظت أبحث عن العصا التي كانت في يدي وضاعت مني ..

تذكرة

رأيتني في ميدان النقل العام في طنطا. كانت هناك حافلات جديدة فخمة، تعتمد على الحجز المسبق من الركاب، دخلت في قلب الزحام لأحجز تذكرة عودة إلى بلدي، ولكن الزحام لم يتح لي فرصة الحصول على تذكرة. وقفت بين الناس أتفرج على قطار يشبه المترو؛ ولكن نوافذه الفارغة بدت كأنها محترقة. القطار يمشي ببطء بحذاء سور محطة السكة الحديد.. سألت أحد الواقفين:

- متى يتحرك القطار إلى دسوق؟

نظر إلى ولم يرد. وقال رجل آخر كان يمر بجواري بنبرة ساخرة:

- اذهب واركب قطار الدلتا!

تذكرت قطار الدلتا أيام كنا طلابا. كان يأتي من طنطا إلى دسوق عبر بسيون. كانت له في اليوم رحلتان ذهابا وإيابا، وكان طلاب معهد المنشاوي يحكون لنا قصصا مدهشة عن سفرهم الذي يستغرق وقتا طويلا، وعن الركاب الذين يصحبون معهم الطيور والحيوانات والقفف وأجولة الحبوب من قمح وأرز وذرة وغيرها والطلاب

المشاغبين الذين يهربون من دفع ثمن التذكرة، والسائقين الذين يتوقفون في بعض المحطات لتناول الطعام والشاي ...

كنت مشوقا إلى العودة إلى بلدتي بأية وسيلة. وجدتني أركب سيارة فخمة يقودها شخص يعرفني، ولكني لا اتذكره. صحوت لأجد صحيفة يومية ملقاة إلى جانبي تحمل أخبارا عن القتال في شتى أرجاء البلاد العربية، وضحايا بلا حصر، وتاجر فاسد يرشو مسئولا مهما بمبلغ ضخم، وفنانة شبه عارية تعلن عن فيلمها الجديد، وناد رياضي يمنح لاعبيه مكافآت خرافية!

الجمارك

قال لي أبي في لحظة مودة وانفتاح أبوي:

- تزوّج الفتاة التي تحبك وليس التي تحبها، بعد أن تسأل عن أهلها وجذورها. فإن كنت غائبا حفظتك، وإن كنت حاضرا سرّتك، وإن كنت فقيرا ساندتك، وإن كنت غنيا صانتك.

وقالت لي أمي في لحظة أمومة سخية:

- إياك وخضراء الدّمن. وذات الصوت المرتفع. وسريعة الانفعال والغضب، وقليلة الصبر على متاعب الحياة!

في الحلم تذكرت ما قاله لي أبي وأمي، ورأيت كأنني في بلاد الروم أخطب فتاة مهاجرة من بلد عربي رشحها لي صديق أثق فيه. قال أهلها:

- إنها لك. نحن نشتري رجلا!

بدوت عريسا في زفة لامثيل لها مع أن الحاضرين قلة. كنت سعيدا بالفتاة التي صارت زوجتي.

حين صحبتها للعودة إلى الوطن ذبحني رجال الجمارك في المطار. أخذوا كل ما معي من نقود. قالوا بمنطق صارم بارد:

- إن معك ثلاث حقائب. مملوءة بملابس جديدة.

قلت لهم :

- إنني عريس جديد، هذه ملابسي وملابس عروسي.

قالوا بحدة:

- لا شأن لنا ، لابد أن تدفع . كلهم يقولون ذلك!

تلفت حولي لم أجد العروس. سألت عنها، قالوا بجفاء:

- احتجزوها حتى تدفع الباقي !

قمت من النوم مذعورا مقهورا، وبحثت عن جرعة ماء!

محاضرة

كانت العمائم السود تملأ المكان. وكانت هناك عمامة سوداء ضخمة تحاضر عن الجهاد والشهادة. كنت وحدي مثل الطائر الغريب. سألتهم في الحلم:

- لماذا أتيتم بي إلى هذه القاعة ؟

قالوا في تودّد:

- لنقنعك أننا نحب الناس كافة وأنت منهم!

قلت في ذهول:

- لكنني لا أعرفكم وليس بيني وبينكم علاقة.

قالوا فيما يشبه الضراعة والمسكنة:

- إنك ترفضنا، وتهاجمنا، وتتهمنا بما ليس فينا !

قلت وأنا أرتعد من برد طوبة :

- إن البرد شديد وأريد أن أذهب إلى سريري. أنا رجل عجوز لا يزعج أحدا!

قال واحد منهم وهو يتناوم:

- اذهب إلى سريرك، واسترح!

استيقظت لأجد الراديو الذي ينام في حضني يذيع أخبار أبي عزرائيل الذي قتل رجلا وشواه وأكل كبده .

صرخت :

يا للهول!

حسين

- بحثت عنك طويلا. أين كنت ؟

أشاح بوجهه عني في الحلم، وبدا أنه يغالب دمعا يحاول أن يخفيه عني.

قلت له :

- أرسلت أكثر من شخص يبحث عنك. قالوا لي إنهم لم يعثروا لك على أثر في القرية. كنت أريد أن تنهي العمل الذي بدأته كي تأخذ أجرك !

تباعد عني وحمل فأسه على كتفه ومضى دون أن ينظر وراءه. قال لي أحد أقاربه :

- لقد كان محتجزا في الشرطة .

سألته بلهفة عن السبب لأني أعرف أنه مسالم ولا يؤذي أحدا؛ فقال:

- لقد أخذوه وهو يعمل مع آخرين في حفر أحد البيوت بحثا عن الآثار!

قلت بدهشة :

- أية آثار؟ قريتنا لا يوجد فيها آثار! إنها ليست مثل القرى القديمة التي عاش فيها قدماء المصريين. ثم من قال إن الآثار تحت بيوتنا؟

لم يعرني قريبه اهتماما، ومضى هو الآخر، وأنا في ذهول لأن الناس يحفرون بيوتهم بحثا عن الآثار أو الذهب التاريخي ولا يبالون أن تقع البيوت على رءوس ساكنيها. وجدتني أقف على مصطبة يجلس عليها عجائز المنطقة مثلي. سمعت أحدهم يقول:

- يريدون الغنى السريع والغني هو الله!

تذكرت أني لم ألق عليهم السلام، وديك الفجر كان يوقظني بصياحه الجميل، فأفقت من نومي أتساءل عن الأثار والذهب والغنى..

أسامة

كان شابا طيبا يفيض وجهه بالحياة والنضارة ومن وراء منظاره المكعب تبدو نظرة ريفية مليئة بالتساؤل والذكاء والبحث عن المعرفة. رأيته في منامي يضحك ويسألني: - ماذا ستمنحنا يا دكتور؟ أحضرت لك أسماء الحاصلين على الامتياز في مادتك، فهل ستقدم لنا جائزة ثمينة ؟

ابتسمت، وقلت له :

- اصبر. لا تستعجل رزقك.

مضيت إلى مكتبي وأنا أفكر في الهدية التي سأكافئ بها الممتازين، وغمرتني الأعمال اليومية حتى حان موعد النوم.

في الصباح رأيت الطالبات يرتدين السواد وتتساقط الدموع من بعضهن والطلاب يبدون في حالة وجوم ويقفون في مجموعات صغيرة أمام المدرج .

أخبروني ان اسامة توفي . سألت : كيف؟

قالوا: سقط من القطار!

قلت :ألم يسعفه أحد؟

قالوا تركوه ينزف في الاستقبال، ولم يهتم به أحد حتى أسلم الروح!

تماسكت أمام الطلاب، وحين احتواني مكتبي بكيت، لأنه لن يأخذ جائزته، واستيقظت لأجد دمعة تسيل على خدي!

الجنازة

ما الذي أتى بي إلى هنا؟ هكذا كنت أسأل نفسي في الحلم وأنا أسير في طرف القرية الجنوبي. لمحت من بعيد جنازة ضخمة بها مئات الناس يقودها زميل توفي قبل سنوات، ويوجهها بصوت قوي.

سألت عن المتوفي؟ لم يجبني أحد. نظرت إلى الزحام فرأيت نعشا ملفوفا بالعلم المصري، كان شكل العلم حائلا ومتربا ومن يحملونه يسرعون الخطو والحركة.

فجأة انشقت الجنازة، وظهر صفان متوازيان ، وبينهما فراغ واسع. رأيتني أندفع في الفراغ وأسأل عن المتوفي مرة أخرى. لم يجبني أحد .

خرجت من المشهد، قابلت عجوزا مثلي يتوكأ على عصا. قال لي دون أسأله:

- إنه شهيد من القدس ؟

سألت عن اسمه.

لم يرد العجوز. ناديت عليه، ولكن صوتي ذهب وأنا أستيقظ مستغفرا ربي.

الخبز

لم أدر أين أنا. كأنني أخوض عباب محيط حافل بالجزر والشواطئ والسفن ومراكب الصيد ذات الشباك المنشورة على صواريها. هأنذا في الحلم أشعر بأني في تيه. أبحث عن أحد يؤنسني ويبدد وحشتي دون جدوى.

رايتني أمضي في حارات ملتوية وشوارع ضيقة. دخلت فرنا يبيع الخبز. الناس يتزاحمون عليه، ولكنى صعدت أمام البائع. صرت طفلا صغيرا يرتدي جلبابا مخططا، وأمامي بائع الخبز الذي اكتشفت أنه ممثل عجوز أعرف صورته جيدا. رأيته في عديد من المسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية. أعطاني الخبز وأخرجت له شلنين، ومضيت فرحا لأني استطعت الحصول على خبز من الفينو الطويل اللذيذ، مضيت آكل شيئا منه، ولكنه سقط مني. نظرت ورائي فلم أر الأرغفة كاملة. رأيت بقايا قليلة منها متناثرة على الطريق المليء بالأوحال المتخلفة عن المطر الغزير، وأنا لا أستطيع العودة إليها.. وقفت محصورا لا أدري إلى أين أتجه، وأحسست بالاختناق.. سمعت صوت الديك كأنه يحاول فك رقبتي، فتحت عيني وتشهدت!

القرش

كنت في مخاضة الحلم شابا فتيا يحب الحركة والتجول. أنتقل من شارع إلى شارع بسرعة العصفور، وأبحث عن اصدقائي من الطلاب الذين ينتظرونني على المقهي الكبير في المدينة .

كنت مشغولا بحل مشكلة نسيت ماهي. وقضيت وقتا طويلا في معالجتها لدى أطرافها في الشارع الخلفي الذي يمتلئ بالدكاكين والخياطين وباعة العطور ونجاري الموبيليا والصيدلية الشهيرة التي تخفض الأسعار للناس، وتصف الدواء دون الحاجة للذهاب إلى طبيب، ولديها إمكانية إعطاء الحقن التي تصرفها للمرضى دون مقابل.

حين ذهبت لزملائي لم أجدهم، ولكني وجدت المقهى الكبير تحول إلى محل للبقالة صعد أحد عماله ليحضر بضاعة معينة لأحد الزبائن الواقفين على المدخل، وكنت أحاول أن أناقش العامل في أمر ما، ولكنه أراد أن يصالحني بعد وقوفي منتظرا فترة طويلة، فأعطاني قرش صاغ أحمر دائرته مشرشرة وبداخلها صورة الملك أحمد فؤاد. حين تأملت المبلغ المطبوع على مركز دائرة القرش لم أجد عشرة مليمات، ولكني وجدت ٢٥ قرشا. استغربت وحاولت أن أستفسر منه عن السر في هذا الرقم،

ولكنه تشاغل عني وذهب بعيدا، ولم أر له أثرا، وأحسست بجنبي يتحرك استجابة لديك الفجر في المنزل المقابل. فتحت عيني وتشهّدت، وقلت اللهم اجعله خيرا!

الغربـة

قابلته في منتصف النهر الذي كان يشبه اليابسة في الحلم. سلم على بحرارة، وسألني عن الأحوال والأولاد والصحة. سألته بدوري عن ابنائه. قال لي:

- إنهم بخير، ويعيشون معي.

قلت مندهشا:

- معك؟ أين أمهم .

قال بنبرة أسى :

- سافرت للعمل في الخليج.

- ولماذا لم تسافروا معها؟

قال وهو يحوّل وجهه عني:

- كنت سأرعاهم هناك ولا أعمل، فالأولى أن أرعاهم هنا، وأمارس حياتي الوظيفية الروتينية.

شعر أنني غير مستريح لحكايته، فأخذ يوضّح، ويسوّغ، ويبرّر.. وأنا لا أقتنع بما يقول، ورأيتني أقف في قلب السوق الأسبوعي الذي يقام في القرية، أساوم البائع على سعر الطماطم التي ارتفع سعرها على غير العادة، وكان يحاول أن يضحكني وهو يردد على مسامعي أنها مجنونة.

قلت ممتعضا:

- لم تعد وحدها المجنونة، الخيار والبامية والملوخية والفاصوليا أصابها الجنون جميعا.

اغتصب ضحكة لا معنى لها، وقال :

- كلنا مجانين..

رأيت الكيس الذي في يدي تتسرب منه حبات الطماطم واحدة بعد أخرى، وأنا لا أبالي.. فقد كنت مشغولا بالنهر الذي ردمه الناس وبنوا على ما ردموا بيوتا وقصورا، ومنعوني من العودة إلى البيت، وشعرت أني أهبط في قاع المياه، ورحت استغيث ولا أحد ينجدني، حتى سمعت صوت المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر.. فقمت أتشهّد، وأحمد الله على نجاتي من الغرق.

السيراميك

صوّر لي الحلم جاموسة جارنا الحاج عبده الغلبان في هيئة ضخمة. حيث ترتفع إلى مستوى سنام الجمل، وتبدو ضعف فيلين كبيرين، ويتدلى منها ضرع كبير له أطراف كثيرة ممتلئ باللبن الحليب يمكنه أن يرضع مجموعة من العجول في وقت واحد.

بعد أن ذهب بعض أولاد الحاج عبده الغلبان إلى الخارج من أجل العمل؛ كان أول قرار نفّذه بعد أن جدّد البيت والحظيرة وأدخل المياه والكهرباء، ولوّن الجدران من الخارج بالألوان الفاقعة، أن بسط السيراميك على أرضية الدار، ولم يكتف بذلك بل مدد البساط إلى العتبة، فصار على الجاموسة والحمار والخروف والجدي أن يعبروا فوق سيراميك العتبة والصالة الطويلة التي تمتد بعرض الغرف الثلاث المتجاورة والحمام والمطبخ والفرن البلدي إلى الحظيرة. كان الخوف كل الخوف على الجاموسة لأنها تتعرض للتزحلق والسقوط على البلاط، ولو حدث ذلك لا سمح الله لكانت كارثة. عند الصباح والمساء تخرج الحاجة زوج الحاج عبده ومعها البنات وهم يساندون الجاموسة ساعة الخروج وعند الدخول ويمضون

بها على مهل حتى لا يقع المحظور.. وتخرج الجاموسة وتدخل سالمة..

في الحلم رأيت الجاموسة وقد تبدلت أظلافها، وتحولت إلى ما يشبه كرات من الكاوتش التي يمكن أن ترتد إلى أعلى حين ترتطم بالبلاط، والمفاجأة أني رأيت الجاموسة تقفز إلى أعلى ثم تهبط على رقبة الحاج عبده الغلبان كأنها حفيد من أحفاده يرتقي كتفيه ويتضاحك معه..

كنت أرقب المشهد وأتفاعل معه لولا أني رأيت مصعد عمارة عالية يفتح أبوابه وخرج منه البواب ، وهو ينادي الحاج عبده بصوت قاطع:

- هيا أدخل الجاموسة لتصعد وترضع الأطفال في الدور السادس.

رأيت الحاج عبده يجلس مقرفصا ويضع رأسه بين ركبتيه ويديه ويستغرق في نوم عميق.. ثم يتلاشى مع الجاموسة والمصعد والبواب .. بينما أستيقظ وعقلي الباطن يحدثني أنه لا بد من ردع هذا البواب عن المزاح الثقيل!

الشاشة

كان شكله في الحلم غريبا وعجيبا. رايته يخرج من شاشة التلفزيون بوجهه الثعباني ، ويمد يده المفرطحة ليسلم عليَّ. رفضت أن أمد له يدي. قال في برود:

- هل أنت خائف مني؟

نظرت إليه دون أرد. أردف:

- أنا أحبك، وإن كنت أعلم أنك لا تشاهد برنامجي!

نظرت إليه محدقا مواصلا الصمت، فقال:

- إنه أكل عيش، وما أقوله من وراء قلبي، ولا أومن به!

فتح ذراعيه وحاول أن يحتضنني تعبيرا عن صداقتنا القديمة فتراجعت، قال:

- أنت حبيب العمر، وأظنك ستقدر أن ملايين تدخل في حسابي، هي أمر لا يمكن أن أهدره.

واصلت صمتي، فأسقط ذراعيه إلى جانبه، وانكمش حجمه، وتضاءل وجهه الثعباني، وتراجع ليدخل الشاشة، وتحدث بنبرة استعطاف:

- الدنيا غير مأمونة يا صديقي، فلا تؤاخذني!

رايتني أمضي في شارع مستقيم، نظرت إلى يميني فوجدت صاحب دكان يبيع الكتب القديمة، يرفع صوته بالدعاء:

- يا رب استرنا دنيا وآخرة. لا تجعلنا نمد يدا لأحد. ثبتنا على الحق يا حق. الملك لك لا شريك لك...

كان صوت البائع يتردد في أذني عندما استيقظت. الملك لك لا شريك لك. وكنت اتشهد واردد دعاءه حرفيا..

الوزير

جاءوني في الحلم على هيئة جيش لا قبل لي به، عشرات مدججون بالسلاح على جنوبهم اليمنى واليسرى، نقلتهم سيارات فخمة لا تمت بصلة إلى قوات الشرطة، ولكن ملامحهم وقصات شعرهم تدل على هيئة عسكرية صارمة.

قال كبيرهم:

- هيا معنا.

قلت في هلع:

- إلى اين؟

- صرت وزيرا!

- أنا

أكد كلامه بنبرة واثقة:

- نعم أنت.

- يا سيدي أنا رجل عجوز مريض لا أصلح للوزارة.

- إنها أوامر!

- أوامر من؟ أنا لم أطلب الوزارة ولا فكرت فيها طوال حياتي.

- الزعيم يطلبك.

- ربما كان هناك خطأ أو تشابه في الاسم.

- لا شأن لنا . أنت بعينك المطلوب.

- طوال حياتي أعد وظيفة الأستاذ أرقى منصب في العالم حتى لو أكلت العشب.

- اختصر. قم ارتد ملابسك، ونحن في انتظارك بالسيارات.

تلفت يمينا وشمالا، استغفر ربي واحوقل ، واسترجع .
فجأة وجدتني اقف على قارعة الطريق بعكازي أسأل الغادين والرائحين:

- ألم تروا سيارة الوزير؟

كان الناس يمصمصون شفاههم ويمضون في سبيلهم، وباغتتني عاصفة من الريح الشديدة، محملة بالغبار، مصحوبة بالصفير، فاستيقظت أدعك عينيّ بسبب الغبار الذي ظننته تسلل إليهما، ولكني وجدت سريري هادئا. حمدت الله أن أنقذني من الغبار والوزارة.

السلطانة

مثل البدر أطلت في الحلم تحدثني عن أرطغرل. كنت رأيتها في حلقات المسلسل الشهير غزالة رقيقة تحب زوجها البطل الذي أسس دولة بني عثمان في الأناضول بعد أن هزم الصليبيين والمغول. وكانت في الوقت نفسه مقاتلة من طراز فريد. لم تستسلم للأعداء، ولم تضعف مع قسوة المطاردة.

قالت لي:

- إن سيدي كان مخلصا لدينه وقومه، ولم تجعله الانتصارات أو الهزائم يترك الميدان أو يتخلى عن واجبه. امه/ أمي هايماه ربّته تربية حسنة، وعاشت متاعب اختفائه وتعذيبه وجروحه وتآمر المنافسين والخونة عليه.. ولكنه في النهاية وضع حجر الأساس لأقوى دولة في العالم في زمنها.

كنت أستمع إلى السلطانة حليمة وكأني في محاضرة مهيبة؛ والمحاضر من أرقي العقول، ووجدت بجواري عددا من الأدباء الكبار الراحلين يستمعون بشغف واهتمام، ورأيت وجوههم يعلوها الامتعاض حين ظهر حاكم عربي مشهور ليحل مكان السلطانة، ويتكلم عن النضال والكفاح

وتحرير فلسطين. كان هذا الحاكم يضع صفوة شعبه وراء الشمس، والدبابات تملأ الميادين والشوارع في مدينته، والطائرات تئز في السماء وتطلق أصوات تفجيرات قوية تهز البيوت والجدران، ولا يدري الناس عنها شيئا.

بحثت عن السلطانة حليمة. لم أجدها. سألت عنها رجلا يقف على ناصية شارع خال من الناس، فقال لي:

- إنها تضع مولودها الأول. وأردف: ابن أرطغرل. ما زال أبوه يقاتل المغول ولم يرجع بعد.

أحسست بالإشفاق على السلطانة والخوف عليها، ورفعت يدي إلى السماء:

- اللهم ساعدها لتنهض بالسلامة..

سمعت الفجر ينادي، والمؤذن يهتف: حي على الصلاة. حي على الصلاة؛ حي على الفلاح... استغفرت ربي، واعتدلت على السرير..

تصريح

كيف عدت إلى الوراء خمسين سنة؟ هذا ما وجدت نفسي فيه وأنا نائم. كنت أرتدي ملابس العسكر، وأحمل حقيبتي الصغيرة التي تضم بعض أغراضي التي أستخدمها في المعسكر.

قلت لنفسي:

- كيف أرتدي الكاكي خارج المعسكر، وقد اعتدنا أن نغيّره بالملابس المدنية لنسلم من سخرية الجمهور والسائقين والركاب بعد النكسة؟

وجدتني أمضي في شارع رملي كأني في صحراء، وهناك سلك شائك طويل؛ بعضه ساقط على الأرض وكأن السيارات مرت فوقه لسنوات فأخفته تحت الرمل. شعرت بقسوة الحر والأرض تكاد تشتعل تحت قدمي. لم أجد في محطة السكة الحديد أناسا. وحدي أتحرك وأبحث عن القطار المسافر إلى بلدتي. القطارات متكدسة وواقفة وخالية من الركاب. جاءت الشرطة العسكرية، سألني احدهم :

- أين التصريح؟

اخرجته وقدمته له:

- ها هو.
رد بازدراء:
- إنه غير مختوم.
قلت له:
- أنا مستجد. والقائد وضح ذلك في أعلى التصريح؟
راح عسكري الشرطة يسألني أسئلة كثيرة نسيتها، ثم قال لي:
- لماذا لم ترتد بدلة الإجازة؟
- لم أتسلمها بعد.
فجأة رأيت أبي ينتظرني على باب الدار، ويضحك في فرح غريب، ويقول لي:
- لقد وجدت تصريحك المختوم.. ثم اختفى..
رأيت نفسي وأنا ألهث وراءه، ولكني لم أجده.. وسقطت من عيني دمعة ساخنة، استيقظت لأمسحها، ولكن لم أجد لها أثرا.

الكحة

كأنها كانت توقظني في نومي القلق. سمعت كحتها المتألمة وانا في الحلم فتأثرت من اجلها، ورأيتها ثقيلة في عمرها الذي لم يتجاوز الخامسة بعد. ولأني احب حفيدتي حبا جما فقد تمنيت أن تزول الكحة بأسرع ما يمكن رحمة بها وبجسمها المضعضع الواهن.

رايتها تغالب الألم، وترتعد من الأدوية التي كتبها لها الطبيب. يحاول أبوها أن يقنعها أن الدواء ليس مرا، وأنه سيجعلها تشفى سريعا بإذن الله، ولكنها كانت ترفض، وتشير إليّ من بعيد، وكأنها تستنجد بي، وتريدني أن انهض لأقف بجانبها وأعفيها من تناول الدواء، ولكني لم أكن قادرا على الحركة، الآلام تعتصرني، والتقلصات الداخلية تتحرك بضراوة ولا أستطيع لها دفعا...

ثم رأيتني أنام في بيت أرضي قديم، وأبحث عن حفيدتي، ورأيت مجموعة من الأقارب يخرجون من غرفة واسعة تشبه المندرة، اكتشفت أنهم كانوا يستمتعون بجو المكيف البارد، بينما الجو في الخارج يشع سخونة وصهدا، مروا علي وأنا جالس دون أن يلتفتوا إلى، وصوت حفيدتي يترامى إلى من بعيد وهي تعاني الكحة الشرسة.

قلت لنفسي:

- اذهب إليها واحملها بين يديك لعلها تتحسن.

بحثت عن حذائي وعكازي فلم أعثر عليهما. كان صوت المكيف مازال يطن في أذني، ولكن الجو خانق، والعرق غزير.. ناديت على حفيدتي ولكن صوتي لم يخرج من حلقي..

جاءتني أمي. رأيتها بعد موتها بسنوات طوال ملهوفة مذعورة، ولكنها حاولت أن تبدو هادئة متزنة ، وقالت لي:

- لا تخف، فالله هو الشافي.

قلت لها في هلع:

- أين أنت يا أمي. لماذا تركتني، أنا محتاج إليك.

نظرت إلي في صمت، وأشارت بيدها مودعة ، وقالت:

- السلام عليكم..

قمت من نومي فزعا، وتشهدت ، ورحت أبحث عن الحفيدة!

الحرّ

كاد ارتفاع الحرارة وازدياد نسبة الرطوبة يسدان مسالك التنفس ويزهقان روحي. اتجهت إلى شاطئ النهر، واتخذت ما يشبه المكتب من صخور قديمة كانوا يصنعون منها رصيفا يحمي الجسور الترابية من غضبة الفيضان في زمن بعيد. فردتُ أوراقي وكتبي، ورحت أكتب ما يساعدني على البحث في نظرية الرواية؛ وفقا للنظريات النقدية الحديثة.

نسيت أن أضع على رأسي طاقية تحميني من قرص الشمس الناري، تلفت حولي فوجدت شجرة صفصاف قريبة ظلها ضعيف، ولكنه يحميني من ضربة الشمس على كل حال، فنقلت الصخرة/ المكتب واتخذت مجلسي ورحت أعمل..

وجدتني أمر من أمام المسجد، بابه الكبير موارب في غير مواعيد الصلاة، نظرت في الفرجة فلمحت من بعيد جاري الطبيب البيطري يجلس في الداخل وأمامه طبلية كبيرة عليها كتب وأوراق، وهو منكب عليها. سألته:

- ما ذا تفعل يا دكتور.
- أكتب بحثا.
- بحثا؟ مالك وللأبحاث؟ عن أي شيء تبحث؟

- الحمى القلاعية؟

- وهل توصلت إلى شيء؟

- نعم. هناك أسباب ونتائج وتوصيات للمستقبل.

قلت له:

- إنك تعمل في مكان جيد لم أنتبه إليه من قبل. سآتي بطبلية وأجلس إلى جوارك فالمكان مكيف طبيعيا. الجدران عالية والشبابيك واسعة ولا أثر للشمس الحارقة.

التفت ورائي فإذا بالساحة أمام المسجد تغص بالحيوانات، والطبيب البيطري منهمك في العمل ويحقن البهائم بمساعدة العمال الذين معه، حاولت الاقتراب منه لأسأله عن البحث، ولكن الزحام أخرجني من الساحة ومن المكان كله، فرأيتني أستيقظ على أذان الفجر وأتشهد وأستعد للوضوء.

المحكمة

كانت الجموع الغفيرة تجلس متلاصقة على الأرض. المكاتب على اليمين في صف واحد يجلس فيها الموظفون، والقضاة في آخر الدهليز حيث القاعة الضخمة التي تجمع المتهمين وهيئة المحكمة والمحامين والجمهور. لم أعرف لماذا أتوا بنا إلى هذا المكان الغريب والجمع الحاشد.

لم أرتكب جرما ولم أعتد على أحد، ولم أشتغل بالسياسة في يوم ما. في زمن الاتحاد الاشتراكي كان يفرض على الناس جميعا أن ينتسبوا إليه، ويدفعوا قرشين اشتراكا شهريا في الوحدة الأساسية، كنت في مأمن من الانضمام إلى أية وحدة. حين أعبر النيل إلى الضفة الأخرى حيث أعمل فيظنون في القرية أني عضو هناك، وحين أعود إلى القرية يظنون أني عضو في جهة العمل. ظللت غير عضو بالاتحاد الاشتراكي حتى سقط وبدأ تشكيل المنابر ثم الأحزاب، ولم ألتحق بهذه ولا تلك إلى أن بلغت أرذل العمر، ولم أعد قادرا على الحركة فعشت بعيدا عن السياسة ومتاعبها، وإن لم أسلم من التصنيف الخبيث!

أحسست بالضيق في زحمة الناس والجلوس على الأرض، فقلت في نفسي:

" ما ذا فعلت لآتي هنا؟ لابد أن أذهب إلى أحد المكاتب وأسأل عن السبب".

وجدت شخصا يرتدي زيا عسكريا، ورأسه مكشوف. ما كدت افتح فمي بالسؤال حتى نهرني لألزم الصمت، وإلا سيدخلني السجن. رأيتني أصمد في مواجهته واتكلم؛ مع أن داخلي كان يشبه غليان الماء في الوعاء، فنظر إلي وركز على شيبتي، وراح يتراجع في صمت. قلت له:

- ساعود إلى البيت. لست مذنبا ولا مدينا لأحد!

لم ينطق ، وكأنه أدرك أني بريء، قفزت إلى الأمام لأجد نفسي على مدخل المقابر ، وأرفع يدي لأقرا الفاتحة على روح ابي وامي وأمواتي، وأمضي على عكازي باحثا عن بيتنا القديم.

الطبيب

رأيته لأول مرة قبل ستين عاما أو يزيد. كانوا يعرفونه باسم الحكيم، وينادونه باسم الحاج محمود، فقد ذهب إلى بلاد الحجاز على ظهر السفينة وأدى الفريضة وعاد يحمل اللقب الذي ألغى صفة الطبيب والدكتور والحكيم. كان الناس يرتاحون إليه، ويذهبون إليه سيرا على الأقدام من القرى المجاورة والبعيدة ثقة فيه وأملا في شفائهم بإذن الله.

قلت له:

- ذهبت إليك مع أمي وأخي الأصغر، فكشفت علينا ولم تأخذ أجرة الكشف.

قال بعفوية:

- لأنكما لم تكونا مريضين، بل كنتما تعانيان من سوء التغذية فقلت لأمكما: عليك بشراء دجاجة، وأكلها وتناول شوربتها، فهو العلاج لما تشكوان منه.

- ظللنا ندعو لك لأنك وفرت علينا ثمن الكشف، وذبحت لنا أمي دجاجة من التي تربيها.

- كان هذا هو العلاج. ولو كنتما كبيرين لأدخلتكما المستشفى لتتمتعا بوجبة الغداء الساخن كل يوم، بالإضافة إلى وجبتي الإفطار والعشاء.

- قبل أن تموت؛ قالت جارتنا أم عبده إنك ادخلت زوجها القسم الداخلي وظل به شهرا خرج منه وردي

الوجه بعد أن كان أصفر.

- كانت أيام!

- لابد أن الله وضعك في مكان جميل في الجنة .

- الحمد لله على كل حال

وجدت نفسي في غرفة العمليات، وقلبي مفتوح وعدد لا احصيه من الأطباء والممرضين والممرضات من حولي، فكرت بعد الإفاقة في المبلغ الضخم الذي طلبوا إيداعه في خزينة المستشفى: هل يفي بالتكاليف أم سيطلبون مبلغا آخر ويحجزونني في المستشفى حتى يأتي به بعض إقاربي؟

تذكرت أنني دخت السبع دوخات قبل دخول غرفة العمليات، بين التحاليل والأشعة ورسم القلب أكثر من مرة، وكشوف متعددة. وفي كل مكان أذهب إليه أدفع مبلغا ضخما. وأنتظر وقتا طويلا حتى أتسلم النتيجة.

زارني طبيب صديق ليطمئن على، فقال لي:

- لماذا فتحوا صدرك ؟ إن أبناء الثمانين في مثل حالتك ليسوا بحاجة إلى ذلك. العلاج العادي يشفيك بإذن الله. كان من المحتمل أن تودعنا في هذه العملية!

نظرت إليه ولم أعلق!

ورأيتني طفلا صغيرا يتعلق بثوب أمه والأخ الأصغر تحمله على كتفها ونحن في طريقنا إلى عيادة الرجل الطيب الحكيم الطبيب الحاج محمود..

العباءة

كان فوق المنبر. وكان يخطب من أعماقه وبأعلى صوت ممكن. من أجل أن يلفت نظر الوزير الذي جاء من القاهرة ليحضر احتفالات المحافظة بعيدها القومي، كاميرات التلفزيون تنقل الخطبة على الهواء مباشرة، نهض أصحاب العمائم الرسمية والملابس الفخمة في الصفوف الأمامية ليفسحوا مكانا للوزير عند وصوله؛ ارتبكت الخطبة وراح الخطيب يتكلم فجأة عن إعداد القوة لمواجهة تحدي عصر المعلومات وانفجار المعرفة!

بينما كان الوزير مشغولا بنفسه، ويحرص على توزيع ابتسامة لزجة كي تنقلها الكاميرات على الهواء، كنت مشغولا بملابس الخطيب الزاهية. جلباب أبيض لامع، وطاقية بيضاء من القماش اللامع أيضا؛ لها حائط مرتفع يستدير حول رأسه. أما العباءة فحمراء فاقعة، فتحاتها مزخرفة بتطريز من القصب الأصفر. كان الرجل يتيه بعباءته فوق المنبر، وقد بلغ من الكبر عتيا. قضى حياته في مديح المسئولين الكبار والثناء عليهم والإفتاء بما يرضيهم، والسلطات المتعاقبة تعده شيخها المفضل، وتستدعيه في كل مناسباتها ليخطب ويثني عليها وعلى قادتها..

كنت أجلس في الصفوف الخلفية على دكة خشبية وبجواري بعض كبار السن. لم أفهم معنى ما ذكره الشيخ عن المقاومة لتحدي عصر المعلومات والانفجار المعرفي، فملتُ على جاري- مع أن الكلام مكروه في أثناء الخطبة- وسألته عن المعنى المقصود. قطب جبينه، وقال منفعلا :

- انظر لعباءته تفهم ما يقول!

استغربت الإجابة:

- ما للعباءة وما يقول؟
- لقد امتلأ ت خزائنه بالأموال الـــ...

لم يكمل جاري الكلام، فقد رأيت التطريز الأصفر الذي يحف فتحة العباءة وقد تحول إلى حية كبرى تلف نفسها حول عنق الخطيب، وهو يصرخ ويصيح:

- أنقذوني.. أنقذوني..

راح المسجد يموج بزحام يتداخل فيه الناس، وارتفع صياحهم وضجيجهم، والحية تكبر وتتمدد ويخرج من لسانها لهب حارق، والوزير تدهسه الأقدام، والعمائم تتطاير وأصحاب الملابس الراقية تتمزق أكمامهم وسراويلهم، والعطش يشقّق حلقي، وأنادي " ماء .. ماء .." ولا أحد ينجدني، وأحسست بالدوار والإغماء، وابتلعني جب عميق!

الشرسة!

رأيتها تشبه كرة سوداء منتفخة. ما كنت اتصور أن تصل إلى هذا السوء بعد أن كانت تباهي بجمالها ولونها الأبيض المشرب بالحمرة كأنها من بلاد الخواجات. بيد أن صوتها كان مثل الرعد. وكلامها يشبه تكسير الحجارة. نظرتها وحشية تعصف بالسكون. حين تضحك كأنها تنبح مثل الكلاب، وتقول لمن يعرفها إنها لن تكبر أبدا ولن تشيخ!

قلت لها:

- زيجاتك المتعددة جعلتك تشيخين مبكرا؟

انطلقت كلماتها مثل الرصاص:

- كلا. ما زلت شابة. رفيقات سنّي لم يتزوجن حتى الآن!

- قضيت سنوات طويلة في الزواج؟

- ولكني ما زلت قوية وعفيَة.

- لم يبق منك إلا هيكل عظمي، ولسان يفيض بالزّفارة.

- لساني هذا هو الذي حماني من أزواجي، وشلّ أيديهم عنّي.

- لم يقل واحد منهم كلمة طيبة عنك.

- لا يهمني . لقد شرشحتهم جميعا ، ومن لم يشتر يتفرج!

كنت أعلم أنها فاشلة، ورفضتُ الزواج منها حينما عرضوها عليّ، وكلما ألحقوها بزوج كان يشكوها لرب السماء، وبعد فضائح يسمع بها القاصي والداني، تذهب إلى حال سبيلها.

استدارت نحوي ، وقالت بابتسامة صفراء:

- لقد كنت تتمنى زواجي، وكنت تحبني؟

قلت في سرّي:

- يا للبجاحة!

وتوجهت إليها قائلا:

- عندي عريس لك، يشترط أن تغسلي لسانك بالماء والصابون عشرين مرة كل يوم.

فوجئت بها تصرخ وتتدحرج كما الكرة على الأرض، حتى سقطت في بلاعة الصرف المكشوف.

نهضت من نومي ورحت أستغفر الله العظيم من كل ذنب!

الزفة

كانت تسبقهم سيارة نصف نقل صغيرة، ركبوا فوقها أجهزة صوت زاعقة يسمعها سكان الشارع من أوله إلى آخره، فضلا عن الحارات المجاورة. كانت سيارات متتابعة تحمل عفش العروس متجهة إلى بيت العريس. موكب العفش مرحلة أولى من مراحل العرس. تنبعث الأغاني السوقية من الأجهزة ويرقص عليها عشرات الشبان من ذوي السحن البائسة. رقصهم غريب لا لون له، ولا تعرف إلى أي بيئة ينتمي. إنه يشبه البلاستيك، لا طعم له ولا رائحة.

استوقفتهم بعكازي، وسألتهم:

- العروس بنت من؟

صمتوا ولم يجيبوا، ثم اندمجوا في الرقص الماسخ ثانية على إيقاع الأغاني السوقية التي يحفظون كلماتها جيدا.

تجاوزوني بموكبهم البائس وضجيجهم المصمي. أقبل أحد أصدقائي المسنّين ليتمنى لي أن أعيش حتى أزوج الأحفاد، جاء وهو يصافحني أربعة من الأولاد الراقصين، وحملوني قسرا ووضعوني وسط مجموعة الرقص. حاولت أن أتملص منهم وأترك الحلقة ولكنهم واصلوا إحكام

الحصار حولي وأنا أختنق، وتلاشت مقاومتي حتى سقطت على الأرض ولم أدر شيئا بعدها.

رأيتني ممددا على شريط أخضر من النجيل قرب الماء، وتحوم فوق رأسي مجموعة من الطيور التي تعيش على الأحياء المائية. رحت أتأملها، وأتابع طيرانها، وأتسمع أصواتها، وأعجب بهبوطها إلى النهر ثم صعودها في خفة ورشاقة. نظرت إلى يميني فوجدت هدهدا ضامرا منتوف الريش باهت الألوان، سألته:

- لماذا أنت هنا؟

مد منقاره الطويل ناحيتي ، وقال لي:

- جئت أحضر الزفاف وأبارك للعروسين، وأغني لهما مثلما يغني محمد عبد المطلب!

استيقظت، فعرفت أن الفجر مازال بعيدا..

الطربوش

رأيته يجلس على الأرض بالقرب من دارنا القديمة. أمال طربوشه على جنب، وفتح الجريدة بين يديه، فأخفت الجاكت المخطط الذي يرتديه فوق جلباب صوفي قديم. كانت علامات عدم الارتياح تبدو على وجهه، ويعقد ما بين حاجبيه، وراح يقرأ بتأن وصوت خفيض :

" بسبب الخِلْفة امرأة صعيدية تشوى الأطفال في الفرن!".

اقتربت منه، ولكنه لم يلتفت إليّ، وواصل القراءة:

"سيدة تختطف طفلا وتحرق جسده لسرقته «توك توك».

"تجرد عامل من كل مشاعر الإنسانية وقتل أباه ودفن جثته بحظيرة".

حاولت تنبهه إلى وجودي، فوقفت أمامه مباشرة وألقيت عليه السلام، فرفع عينيه نحوي، وقال مستعيدا أيامه الماضية:

- كنت صحفيا كبيرا ولم أسمع عن مثل هذه الحوادث البشعة. أنتم تبالغون يا أبناء النت. كيف تعيشون في ظل هذه الهمجية؟

قلت له:

- كنتم عددا قليلا في أيامكم، ولكننا الآن مائة مليون بني آدم. الدنيا زحمة، والمشكلات كثيرة ، وضُعُف الدين لأن أحدا لا يعلّم الدين!

- الجنة واسعة ولا نشعر فيها بالزحام. دعني أذهب إلى النعيم!

كنت أحاول مناقشته، وسؤاله عن اسمه ومكان عمله، ولكني رأيته يطير، ويصعد في السماء، وطربوشه يتهادى بجواره، والهواء يملأ ثوبه ويفرد الجاكت، وسمعت صوت نشيد يتردد بالقرب منه، ويتسلل إلى أذني خافتا؛ "والله زمان يا سلاحي.. والله زمان يا سلاحي.. اشتقت لك في كفاحي

انطق وقول أنا صاحي

يا حرب والله زمان

والله زمان ع الجنود

زاحفة بترعد رعود

حالفه تروح لم تعود

إلا بنصر الزمان...

رأيتني أرتدى البدلة الكاكي على الجبهة، وأجلس مع زملائي الجنود ننظف السلاح الشخصي، وننتظر التفتيش.. استيقظت فوجدت صوت الرجل يطن في أذني وهو يتلو حوادث الصحيفة في غضبه المكتوم..

وردة

جلس بجانبي صامتا. لم أره منذ ربع قرن تقريبا. آخر مرة رأيته فيها كنّا في ندوة حول أحد كتبي. أشاد بما كتبت، وتحدّث عنّي حديثا مستفيضا كله ثناء وتقدير. طوّحت بي الدنيا هنا وهناك، فكان البريد أداة تواصلنا ومعرفة الأخبار الأحوال.

صرت أعلم أخباره من الصحف حين انهار البريد، وأهمل الرسائل وضيّعها، وتحول من خدمة الناس ونقل رسائلهم إلى صرافٍ لمعاشات الفقراء يتقاضى عليها عمولة مضمونة. سألته:

- مالك حزين لا تتكلم؟

قال:

- ألم تقرأ ما كتب في الصحف؟

قلت له مندهشا:

- لا

- لقد أوقفوا معاشي لأنني بلغت التسعين!!

أبديت أسفي ومواساتي، ودعوت له بطول العمر. فاستطرد:

- إنه معاش بسيط. ولكنهم يشترطون على من تجاوز التسعين أن يحضر أمام موظف المعاشات بنفسه

ليثبت أنه حيّ يرزق!

- وماذا فعلت؟

- رافقتني وردة إلى مبنى هيئة المعاشات، وتركتني في الدور الأرضي وصعدت إلى الدور الثالث لتقابل الموظف المختص، الذي أصر على صعودي لأقف أمامه ومعي بطاقتي الشخصية.

- ولماذا لم ينزل الموظف لرؤيتك وهو شاب يجيد الحركة ويمتلئ بالحيوية والنشاط؟

- لقد أصر على موقفه!

- ماذا فعلت؟

- ساندتني وردة وأحد العاملين حتى صعدنا ووقفنا أمام الموظف الذي لم يسمح بجلوسي على كرسي وأنا منهك، واطلع على البطاقة، وبغطرسة خشنة، أعلن:

- خلاص سنرسل لك الشيك! ولم يرسله حتى اليوم.

بللت دموعه وجنتيه، وأدار رأسه بعيدا عني. حاولت مواساته، ولكنه اختفى، تاركا خلفه صحيفة وكتابا عليه إهداء لوردة وصورة لبطاقته الشخصية، ووجدتني أتلو سورة الناس، واختتمها بقوله تعالى: "من الجنّة والناس".

الحقيبة

كأنني على شاطئ المحيط بمدينة أغادير في المغرب الشقيق. جلست على الرصيف أرقب المارة والسيارات، وأنتظر أحد أصدقائي، رأيت أولادي وهم أطفال يلعبون ويمرحون على شاطئ رأس البر. سيارتي الصغيرة تقف بالقرب منهم. كنت أضعهم في حقيبتها وأرفع الغطاء، بينما يتضاحكون ويشيرون إلى المارة والسيارات الأخرى ويتجاذبون مع سائقيها وركابها أطراف الحديث والضحكات حتى نصل إلى قرب اللسان ساعة الغروب، فنرى النهر والبحر معا. الأمواج تلمع ببريق ذهبي، والدلافين تمرح في الماء وتتقافز، والناس في نشوة المنظر الجميل يتناولون المشروبات الغازية والمخبوزات الساخنة، وأنا أعد أطفالي بعدد من الفطائر التي يقدمها فندق "أبو طبل" بالمدينة.

لماذا جئت إلى هنا ؟ لا أعرف..

إنه معبر رفح. جئته في الشتاء بعد ثورة يناير. كنت مع أساتذة زملاء من أنحاء العالم العربي لحضور مؤتمر عمداء البحث العلمي في إحدى جامعات غزة. ظللنا في

المعبر ساعات طوالا مع أن الوفد يحمل تصريحا من الجهات المعنية. أخبرونا أن الدكتور بشير، رئيس جامعة سوداني؛ لا يحمل تصريحا هو الذي أخّر دخول الوفد، رأيت شاطئ غزة مثل شاطئ رأس البر، وأطفالي في حقيبة السيارة يمرحون. كان المطر يهطل فوق القطاع ويغسل الأرض ويبشر بموسم من المياه غزير..

أين سيارتي الصغيرة، وأين أطفالي؟ لقد بقيت وحيدا أجلس على ناصية الشارع، وفي فمي رائحة الفطير تنبعث من فندق أبو طبل!

***

السّخان

هذا الصوت أعرفه. غاب عني طويلا ولكني لم أنسه أبدا. نظرت إلى بيتنا القديم؛ فوجدته قادما يشير إلىّ أن أحذر السخان وأسلاكه المكشوفة. يخاف على الأولاد. أصغرهم ولد قبيل رحيله عن دنيانا بستة أيام منذ واحد وثلاثين عاما.

قلت له:

- لا تخف يا أبي فإني أخاف عليهم مثلك تماما.

قال بحدة:

- لا.. أنت لا تهتم، والأولاد مندفعون. لا يعرفون الصواب من الخطأ. وقد تؤذيهم الكهرباء.

تأملت جلبابه البلدي وأكمامه المفتوحة، وطاقيته البيضاء ذات القرص الصغير والسجاف العريض. وسألته في شوق:

- أين كنت من زمان؟ بحثت عنك في كل مكان ولكني لم أعثر عليك. كبر الأولاد وتزوجوا عدا فاطمة. لو رأيت حفيداتي الجميلات لفرحت بهن، رقية في الصف الأول، وهي تشبه أمي طبق الأصل. طيبة، وحنون. مريم قريبة منك، وهي ظريفة وخفيفة الروح والدم، أكثر حركة ونشاطا و...

كان ثغره يفتر عن ابتسامة سعيدة، وكان يستمع بشوق إلى ما أقول، ولكني لم أستطع إكمال حديثي الذي أسعده فقد رأيته يختفي وسط أسراب من طيور بيضاء، لم أتبين شكلها جيدا: هل هي طيور أبي قردان أو الإوزّ العراقي أو البجع الأبيض الذي كان يأتي عادة مع فيضان النيل؟

ناديت بأعلى صوتي:

- يا أبي! يا ابت!

لم أسمع إجابة، ولم أجد صدى..

وصحوت على مواء القطط قبيل الفجر!

العيادة

مع أني أكره التردد على العيادات، فإنها لا تفارقني في معظم مناماتي. أحاول الهروب منها بالنسيان؛ ولكني أفشل، فالمتاعب الصحية تجعلني مضطرا للتردد عليها، ورؤية العديد منها، ما كان مستواه جيدا ونظيفا، وما هو رديء وغير نظيف. قلت لأحد الأطباء :

- خذ خمسة جنيهات زيادة عن قيمة الكشف من كل مريض مقابل كنس العيادة وتنظيفها وتطهيرها بالديتول. نظر إلى ممتعضا، ولم يرد..

استغربت أن يأتي إلى في المنام، وكأنه يأخذ بخناقي، ويبلغني أن اقتراحي بزيادة الجنيهات الخمسة يجعل المرضى يذهبون إلى طبيب آخر!

قلت له بهدوء:

- إن أقل كشف بمائة جنيه، وعشرة للعامل الذي يستقبل المرضى ومكالماتهم الهاتفية، وخمسة جنيهات مبلغ بسيط في زمن التعويم!

زوى ما بين حاجبيه، وقال محاولا إنهاء كلامه:

- على كل حال هم يجلسون ساعة أو ساعتين ثم ينصرفون..

رفعت صوتي مستبقيا الحوار عنوة:

- إن الحمّام لا يُطاق. رائحته تتجاوز العيادة إلى بقية العمارة!

حاول أن يسترضيني مع إغلاق الحوار:

- إن شاء الله .. إن شاء الله.. اطمئن .. سنقوم باللازم!

رايتني وسط عشرات المرضى في عيادات الرعاية الصحية التابعة لجهة العمل. قالت سيدة برميلية الشكل وترتدي زيا أبيض، ونظارة سميكة، وتمضغ شيئا في فمها:

- بالدور يا جماعة .. بالدور الله يخليكم..

وجدت سريرا عليه ملاءة مليئة ببقع الدم وآثار ادوية سائلة، يرقد عليها زميلي في قسم الآثار، ويتأوه، ولا أحد يغيثه، اندفعت نحوه لأساله عن حاله، ولكنه لم يستطع ردا، كان يتقلب مثل الدجاجة الذبيحة، وبحثت عن طبيب لينقذه، لم أجد حولي إلا السيدة البرميلية وهي تردد نشيدها الممل:

- بالدور يا جماعة بالدور يا..

سمعت أحدهم يهتف:

- الرجل يموت . أنقذوه. أنقذوه....

أحسست بأنفاسي تختنق ، وقمت لأجدني ألهث كأنني كنت في ماراثون جري، لا أدري من يشارك فيه..

المؤذن

كان يقف على باب المسجد حزينا ، ويقول لي:

- لقد أغلقوا الباب ومنعوني من الأذان!

قلت له مندهشا:

- لا يستطيع أحد أن يمنعك من الأذان. أنت تؤذن منذ أربعين عاما، ولم يعترض أحد. كنت موظفا رسميا في الأوقاف. فترة التجنيد فقط هي التي لم تؤذن فيها لأنك كنت في الجيش.

غالب دمعة همت بالنزول على وجهه المشرب بالحمرة والتوهج. وقال في أسى :

- أغلقوا الباب، وأخبروني أنني على المعاش. لم أعد موظفا والتعليمات تمنع غير العمال الرسميين من الأذان! يغلقون الباب كلما رأوني قادما نحو المسجد!

ذكرني بأيامه القديمة، وكيف كان يصعد المئذنة في جوف الليل أو مع النجمة قبيل الفجر بنحو ساعتين، ومعه فانوس صغير، ويخرق السكون بصوته الجهوري وهو ينشد التواشيح والقصائد، وخاصة البردة، ويكرر بعض أبياتها التي تروقه مثل:

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها

ايما شمم

وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

محمد سيد الكونين والثقلي .... ن والفريقين من عرب ومن عجم

كان الناس يضبطون موعد استيقاظهم مع صوته حيث يجهزون أنفسهم لأعمال الحقل، أو الخروج من القرية للعمل في مصانع الطوب أو الأراضي المجاورة، كانوا ينامون مبكرا حيث لا كهرباء ولا تلفزيون. الراديو كان نادرا، معظمهم يصلي العشاء وينام.

كدت أبكي من أجله، ولكنه فاجأني بالضحك، وراح ينشد: وراودته الجبال الشم من ذهب..

ثم أسرع واتخذ سبيله في البحر سربا، وأنا أنادي عليه، ولكنه لا يلتفت إلي......

الفطير

تكرر الحلم ولا أدري لذلك سببا. أخوض امتحان الليسانس، وأنا مطالب بأداء الامتحان عن سنة سابقة. جلست مع أساتذتي وكانوا سعداء بي وبشّروني أنني سأكون زميلا لهم بعد ظهور النتيجة.

قابلت زميلي عبده جمعة، وراجعنا أسئلة المادة التي خرجنا من امتحانها فكانت المراجعة مبشرة بأن التقدير سيكون طيبا. قال لي مسجل الكلية :

- يا بني إنك تغامر بأداء الامتحان، ولمّا تتح لك فرصة الاستذكار الجيد. ليتك تؤجل الامتحان هذا العام لتبدأ من أول العام الجيد.

قلت له:

- إنني مصرّ على دخول الامتحان، ولو حُسِبت سنة رسوب!

- الله معك.

كنت عائدا من سنوات التجنيد الطويلة، خارجا من حرب تاريخية، أبدو أشعث أغبر، كأن ملابسي مهلهلة، وحذائي العسكري ممزق، ومتاعي ضاع معظمه في ميدان القتال. ولكن أساتذتي فرحوا بي ورحبوا، وتنازعوا لأنضم إلى

تخصصاتهم الدقيقة.

في البيت الذي أسكنه مع الطلبة كانت الغرف فسيحة وواسعة، وتبدوا أقرب إلى بيوت الفلاحين، رأيت زميلا يأتي من الغرفة المجاورة ومعه طبق كبير مليء بطعام يشبه الممبار، وخبز مثل الفطير .قلت له:

- شكرا يا أخي. لقد سبقك جارنا في الغرفة الثالثة، أحضر كمية كبيرة من الفطير المشلتت طازجا.

قال :

- لا بد أن أحدا من أقاربه حضر اليوم من القرية.

قلت له :

- خذ هذا . لدينا أكل كثير..

أصر على تقديم هديته، ومضى عني، وخلا المكان لأجدني بين لجان الامتحان في الكلية، وخندق العساكر في الصحراء، ممددا على لوح من الخشب المفروش فوقه بطانية رصاصية اللون، وأخرى للغطاء......

الثعلب

لم أكن أتصور أنني أستطيع قيادة السيارة بهذه القدرة التي لم أعرفها منذ سنوات طوال. هأنذا أمضي على طريق شبه مهجور، شبه ممهد، يحاذي النهر، وأضواء السيارة تكشف مساحة كبيرة من الطريق أمامي تظهر فيها الحشائش على جانبي الطريق، ويخرج منها بين حين وآخر ثعالب صغيرة وكبيرة تتقافز من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين، ورأيت ثعلبا صغيرا رمادي اللون رأسه ضئيل، وذيله طويل منتفش، يتحول إلى لون اسود ثم إلى لون أبيض، ثم ينتفخ، ويكبر ويقف على قدميه ، ويرتدي عمامة وجبة، ويتلو نشيد أمير الشعراء، ويدوي صوته في أذني:

برز الثعلبُ يوماً ... في ثياب الواعظينا

فمشى في الأرضِ يهذي ... ويسبُّ الماكرينا

ويقولُ : الحمدُ للـ ... ـه إله العالمينا

يا عباد الله، تُوبُوا ... فهوَ كهفُ التائبينا

وازهَدُوا في الطّير إنّ الـ ... ـعيشَ عيشُ الزاهدينا

واطلبوا الديكَ يؤذنْ ... لصلاة الصُبحِ فينا

فأتى الديكَ رسولٌ ... من إمام الناسكينا

عرَضَ الأمْرَ عليه ... وهْوَ يرجو أن يَلينا

فأجاب الديك : عذراً ... يا أضلَّ المهتدينا !....

كان الثعلب يهزّ عمامته، ويفتح الجبة ويغلقها ويضحك

بملء فيه، ويقول: لن يفلت مني الديك مهما حاول...حين ظهر الذئب في الطريق اطلقت عليه شعاع السيارة فاختفى على الفور، ولكنه ترصدني عند منحنى الطريق فأطفأت النور، وأوقفت السيارة، ثم أعدت تشغيلها فجأة وأطلقت الشعاع ثانية فاختفى الذئب تماما، ورايتني أجلس على شاطئ النهر ومعي سنارة وقصبة صيد، والطعم إلى جانبي، ورحت أصطاد أسماكا صغيرة..

كان الليل ساكنا، والقمر بدرا في السماء، ومن حين لآخر يرتفع صوت الضفادع وبعض الحشرات، والسنارة تغمز ببعض الأسماك، وفجأة وجدتها تكاد تسحبني إلى عمق الماء.. حاولت نزعها بكل ما أوتيت من قوة، ولكنها كانت ثقيلة للغاية، وبعد جهد أخرجتها، كان في طرفها ثعلب رأسه صغير وذيله طويل، يتغير لونه من شكل إلى آخر، فقذفت بالسنارة إلى الماء.. وأطلقت ساقي للريح..

الدرويش

منذ خمسين عاما لم أره. كنت شابا في العشرين تقريبا، وكان هو يأتي إلى قريتنا كل عام في موعد المولد. كان يرتدي عمامة خضراء وثوبا أبيض ومسبحة كبيرة الحبات ، ويهتف بكل ما أوتي من قوة :

" صل على النبي.. صل على النبي".

قلت له :

- أين كنت في الفترة الماضية؟

قال بدهشة:

- ألم تعلم؟

- لا

أجبت بتلقائية.

- لقد أعدموني في قضية لا أعلم عنها شيئا!

استغربت:

- ولكنك رجل طيب لا تؤذي أحدا.

- منهم لله !

- من هم ؟

تساءلت حائرا.

قال:

- لا تشغل بالك.
- أين أنت الآن؟
- في الفردوس. مع الصالحين؟
- سبحان الله
- لا تستغرب.. فأنا قدمت حياتي فداء للدين..

لم يتركني أسأل أو أستفسر، وفرّ من أمامي، مخلفا رائحة عطر سوقي رخيص، رحت أتلفت حولي، وأتساءل فيما بيني وبين نفسي، ماذا فعل الرجل ليكون فداء للدين؟ كان يصلي، ولا أعرف عنه زوجة ولا ولدا، ولا أعلم شيئا عن مصدر رزقه. بل إنه لم يكن يستخدم النقود حين يأتي إلى قريتنا، من أين يأكل أو يشرب، أو أين يبيت..؟

شغلني الناس وهم يمضون في طريقهم، ويهربون من الحر اللافح والشمس الساطعة .. وانطلقت في تيارهم أمضي إلى وجهة غير معلومة.

الوابور

كانت الأرض الخضراء منبسطة أمامي. هبطت مياه الفيضان الحمراء وتركت طميا قويا أخرج زرعا أخضر بهيجا. جريت بقدمي الحافيتين نحو الوابور الأبيض، أو بقايا الجدران التي كانت تضم ماكينة كبيرة لسحب مياه النهر عندما تهبط بعيدا وتروي مساحات شاسعة ممتدة على الشاطئ. وفّر على الفلاحين متاعب تشغيل السواقي أو الشواديف. وسموه الوابور الأبيض لبياض جدرانه الحجرية.

كنت في الحلم شجاعا. لم أخف من عفريتة ست القطة! قالوا إن جماعة من الجزارين وسماسرة البهائم اتفقوا على قتلها لأنها كانت قوية وتفرض عليهم إتاوة باهظة يوم السوق كل أسبوع. فاستدرجوها إلى الوابور الأبيض وأنهوا حياتها.

كان رفاقي الأطفال يخيف بعضهم بعضا، ويقول : "لا تذهبوا إلى الوابور لأن العفريتة تخرج وتخطف من يقترب منه وتنزل به إلى عمق النيل ولا تخرج جثته انتقاما من أهل القرية".

لم أخف أبدا، بل إنني صعدت على الجدران القصيرة الباقية من الوابور وناديت على رفاقي ليلعبوا معي، ولكن لم يستجب أحد، لأني لم أجد أحدا!

كنت سعيدا بالخضرة والماء الذي يتدفق بسرعة في مجرى النهر، ورحت أرتع وحدي وألعب. الدنيا واسعة، أرى دارنا من بعيد، وخلفي تتهادى المراكب بأشرعتها البيضاء كأنها أسراب حمام تمضي في مشهد منظم وتنسيق جميل.

أردت العودة إلى البيت لم أجد الأرض الخضراء، واختفي الوابور الأبيض. رأيت بيوتا خرسانية جدرانها حمراء، وتشبه الأرانب في كثرتها وتناسلها على المساحة التي كنت أستطيع أن أرى منها دارنا البعيدة. وكانت عصاي تقودني وسط الأزقة التي لم أرها من قبل، ورحت أسأل عن الطريق الذي يوصلني إلى الجسر الذي أمام بيتنا، فلم يجبني أحد. ضحك طفل قابلته في الطريق، وراح يهز عكازي ويقول لي:

- ألم تر السكة؟ أنت عجوز لا تعرف المشي؟

ضحكت على كلامه، وسألته إن كان يعرف دارنا، فأجاب بالنفي، وقال يرشدني:

- امش هكذا تخرج إلى الجسر مباشرة.

تركني ومضى، وظللت أبحث عن دارنا ، ولكني لم أجدها..

الممثل

كان يمثل دور الشنكحاوي والزعبلاوي على خشبة المسرح الذي أقمناه في باحة المدرسة. أضحكني وأضحك كل المشاهدين من التلاميذ وأهالي القرية. حسّه الفكاهي كان عاليا. بيد أن أعماقه كانت تشي بشيء من الحزن لا أعرف مصدره.

أخذني معه إلى القرية الكبيرة المجاورة ليقابل أمين الاتحاد القومي. مع صغر سنّه صار عضوا في لجنة القرية، بعد انتخابات مثيرة وعاصفة، شهدتُ كثيرا من الاجتماعات والتربيطات، فضلا عن الدعاية الواسعة بين العائلات والأسر. كان ترتيبه الثالث بعد اثنين من كبار القوم . قال لي ونحن في الطريق إلى القرية الكبيرة :

- سأكون يوما ما أمينا للاتحاد في المركز كله.

وقد كان.

ترك وظيفته وفرّغوه لأمانة الاتحاد الذي أصبح الاشتراكي بدلا من القومي. حصل على مرتب مضاعف، ولكن شيئا في أعماق عينيه كان يشي بحزن عميق لم أعرف سببه.

على حافة الجرن وقفت أتفرج وأسمع ما يقوله كبار

القرية عن الشاب الذي سافر مجندا مع الجيش إلى اليمن ولم يعد. تأخرت خطاباته، ذهب أبوه مرات عديدة إلى مصر المحروسة ليسأل المسئولين عن ابنه، وعدوه أنه سيأتي مع الدفعة الجديدة، ولكنه لم يأت. انسحب الجيش من اليمن بعد حرب ٦٧، وعاد أفراده إلى البلاد، ولكنه لم يأت. الناس حزاني. ويطلبون له الرحمة حيا أو ميتا.

في الاتحاد الاشتراكي ظهر صديقي الممثل عجوزا هرما، وكان يقول لي:

- انا ما زلت أكثر شبابا منك. والعصا في يدي للتجمل و...

قلت له:

- ولكنك متّ قبلي وامضيت سنوات تحت التراب؟

أجابني ضاحكا :

- سأخرج من تحت التراب وأمثل الشنكحاوي والزعبلاوي مرة أخرى...!!

الاحتياط

كنا في حفل العودة بعد التجنيد. أهلي ومعهم الضيوف فرحوا بعودتي وحصولي على شهادة القدوة الحسنة؛ عقب سنوات طوال قضيتها هناك حتى انتهت حرب رمضان وتحطيم خط بارليف. سعادتي لا توصف بالعودة إلى الوظيفة المدنية ومواصلة التحصيل العلمي.

قال لي أبي- رحمه الله- مشفقا عليّ بعد السنوات الصعبة:

- كفى! اهتم بنفسك وابحث عن عروس، وعش مثل الآخرين.

قلت باسما :

- العروس والعلم معا إن شاء الله.

في أحد شوارع القرية رأيت زميلي إسماعيل، يرتدي ملابس السفر، ووجهه يضيء بالفرح فأثار دهشتي، وحين اقتربت منه، أخبرني أننا- دفعتنا- مدعوون للاحتياط. سألته :

- كم سنبقى؟

- لا أعرف. ربما عشرة أيام أو أكثر.

وجدت خلقا كثيرين لا أعرف ماذا الذي جمعهم في مفترق الطرق الواسعة. سألت: - أين هم

ذاهبون؟ لم يجبني أحد.

مضيت في طريقي أتوكأ على عصاي. سمعت أذان الظهر في مسجد قريب لم أتبين موقعه. قلت في نفسي: لعلي اتوضأ واصلي ثم انام قليلا، ولكني فوجئت في الطريق بحفيد زميلي يجري نحوي، ويسألني في لهفة عن جده. قلت له: لعله يصلي في المسجد. رأيت الغلام يكاد يبكي، ويختفي من أمامي.

فجأة راحت السماء تمطر. والطرقات تجري فوقها مياه المطر الغزيرة، والسحب ترعد وتبرق، والدنيا تكاد تتحول إلى ظلام في عز النهار، والناس من حولي ذهبوا إلى بيوتهم أو اختبأوا في أماكن تحميهم من المطر والرعد والبرق. لا أدري والمطر يغرقني إلى أين أذهب؟

جريت بأقصى سرعة وأنا فرح أقول لأمي:

- الدنيا تمطر.. الدنيا تمطر ..

تبسمت وقالت:

- ألم أقل لك لا تمض حافيا؟

وقادتني إلى الحمام، وراحت تبدل ملابسي، ثم تضعني تحت اللحاف بعد أن جعلني البرد أنتفض وتصطك أسناني، وأغمضت عيني..

العجوز

كأنه يعاتبني انني لم أمش في جنازته. فقال في نبرة من يتصنع الاتهام:

- أعلم ظروفك الصحية، ولكني كنت آمل أن تتغلب عليها.

قلت له باسما:

- أراك في صحة أفضل. كنت في الحياة تبدو مرهقا مكدودا، أما الآن فأنت تبدو متفتحا، ووجهك يشع بالضياء.

ردّ في حياء:

- الحمد لله. كنت أدعو الله دوما أن يحسن الخاتمة.

خرجت علينا امرأة عجوز انحنى ظهرها، واسود وجهها الذي ملأته التجاعيد الحادة، وغاصت عيناها الضيقتان في تلافيف هذا الوجه. سألته :

- من هذه؟

صمت ولم يرد. بادرت هي إلى القول:

- أنا من كنت جميلة زماني..

وجلست على الأرض منهكة وعكازها بين يديها تندب الماضي الذي كان وتنوح على ما جرى:

- سامحني يا ربي. في شبابي هيأت له نفسى، ولم يقل معاذ الله بل استمر في الغواية حتى تزوج!

ثم ولولت المرأة، وضربت صدرها بيدها، وقالت وهي تنتحب:

- عاقبني ربي. واحترق قلبي بفقد وحيدي الشاب الذي ترك يتيما لا عائل له.

نظرتُ حولي لم أجد زميلي، واختفت المرأة، ورحت أتذكر أيام طفولتي وصباي حين كنا نلعب الكرة في الجرن، وكان زميلي أفضلنا في الجري وتسديد الأهداف. ظل يلعب حتى تخرج وتزوج فانشغل بحياته الجديدة وتربية أولاده والسفر إلى الخليج، وعاد ليكون شبه رجل أعمال، وبدا حرصه على الصلاة والمشاركات الإنسانية واضحا..

ذهبت إلى الجرن أتوكأ على عصاي، فلم أجد إلا بيوتا خرسانية قبيحة الشكل ضيقة الحارات، تمتلئ قذارة ، ورائحتها لا تطاق، فهتفت من أعماقي:

يا مغيث!!

المخلاة

قابلني في الحارة التي تلي بيتنا القديم، مندهشا مستغربا:

- ما هذا الذي ترتديه؟ وماذا على ظهرك؟

ضحكت وقلت له:

- لا تندهش ولا تستغرب. هذا زي الصعايدة يريحني، العمامة الكبيرة تحميني من شدة الشمس، والثوب الفضفاض لا يقيدني مثل البنطلون والسترة، أما الذي على ظهري فهو مخلاتي.

- وما الذى تضعه في المخلاة؟

- المخلاة هي بيتي، وهي مطبخي. أضع كسرات الخبز الذي صنعتها أمي قبل أن تلقى وجه ربها. وهناك بعض التمور، وزجاجة ماء من البلاستيك. وهذا يغنيني عن كل شيء، ويريح معدتي وأمعائي، ويساعدني على مواصلة الطريق!

- كأنك أصبحت درويشا تزهد في الدنيا وملذاتها!

تنهدت فقد ضقت به:

- إني على حافة الآخرة، ولا أريد من الدنيا شيئا.

أعطاني ظهره ومضى.

في الطريق قابلته في مدينة عربية. كان يتباهى أمامي

بآلاف الدورات التي ادّخرها من عمله في الجامعة هناك، قال لي:

- تعال لنتناول وجبة من الدجاج المشوي في هذا المطعم.

قلت له:

- بشرط أن أدفع الحساب. أعلم أنك حريص على النقود. وتساوم على السعر مهما كان بسيطا.

ضحك ضحكة لزجة، وقال:

- موافق!

دخلنا المطعم. وجدت قوما يفترشون الأرض في حال بائسة، سألتهم:

- من أنتم؟

نظروا إليّ وكانت الدموع تهطل من عيونهم المجهدة، ولم يجب أحد على سؤالي. لكن منظرهم كان يشي أنهم مهجّرون من بلاد بعيدة في الشرق...

وضعت مخلاتي أمامهم ، ومضيت وحدي في طريق مهجور.

الباب

- ظننتُ أنك رحلتِ إلى الدار الآخرة منذ زمان!
- وهأنذا حيّة أسعى. عمر الشقي بقي كما يقولون.
- تجاوزتِ المائة بكل تأكيد.
- الأعمار بيد الله.
- أتذكرين يوم خلعتِ باب الشقة وجعلتها مفتوحة للرائح والغادي؟

نظرت إليّ بشيء من الغضب، وكأنها تطلب مني أن أصمت، وإلاّ اذكرها بأول موضوع تنهزم فيه أمام الحارة كلها..

قلت لها محاولا مناكفتها:

- فيك شيء من القوة التي كانت أيام زمان.
- الحمد لله.
- الحارة كلها كانت تخافُك، وتتقرب إليك بالنفاق ومعسول الكلام.
- إلا أنتم فقد وضعتم رأسي في التراب!
- كنا ندافع عن أنفسنا.
- وهل اعتديتُ عليكم؟
- ردحتِ لنا، وخلعت الباب لتطردينا من السكن.

سكتت ولم تعقب. قلت لها:

- لقد أعطيناك قيمة الغرامة لعقد اتفاقية الصلح؟

ظلت ساكتة، ولم تعلق. خاطبتها في نفسي:" كان صوتك الإرهابي يأتينا من الدور الرابع يخيفنا نحن الطلاب الغرباء الذين يحتاجون إلى كل دقيقة من أجل المذاكرة، ونبتهل إلى الله أن تمر الليلة دون عناء أو صراع، ولكنك لا تتعبين من الصراخ والردح والبذاءة، جاءك مستأجر يدفع أكثر فاستضعفت جانبنا، وضغطت لكي نهرب ونترك السكن، ولكننا لم نهرب، لأن أيام الامتحان لا تسمح بالبحث عن سكن جديد، وكانت المغامرة غير المسبوقة أن يتصدى لك أحد. وقفنا أمام الشرطي الذي يحرر المحضر، قال: تصالحوا أفضل. قلنا له: لا نقدر عليها. في اليوم التالي جاء عسكري يطلبها إلى القسم، وهناك عرفت، وجاءت معبأة بعواصف العالم، ولكن السهم نفذ! بعد الصيف عرفنا أنك دفعت الغرامة، وجاء الوسطاء من الجيران لعقد الصلح، وقالوا: من أجل تطييب الخواطر؛ ادفعوا الغرامة، وتم تركيب الباب، وصارت لنا هيبة في البيت الذي خضع لك".

- أين تذهبين؟
- إلى خيام الإيواء؟
- ولماذا لا تذهبين إلى بيتك؟
- لقد هدمه الزلزال!

وجدتني بكتبي وأوراقي أمضي إلى الكلية، بلا عكاز ولا خشونة في المفاصل ..

السيجة

كأنه لم يغب عن المكان أبدا. يجلس مستندا على جدار المسجد الخارجي وحوله المريدون والأتباع، وقد التفوا حول السيجة، وانقسموا إلى معسكرين، كل منهما يناصر كلابه. فريق يناصر الكلاب البيضاء المكونة من كسر الأحجار، والآخر يناصر الكلاب الحمراء المصنوعة من كسر الطوب. هو الزعيم الذي يسيطر على اللعبة ويأكل كلاب الفريق المنافس بكلابه من خلال التحكم بَنقلاتها. قلت لهم ضاحكا:

- إنكم تستحقون أن تلعبوا شطرنج بدلا من السيجة.

رد الزعيم في استخفاف:

- الفقراء يلعبون السيجة لأنها أرخص والتراب كثير، والأحجار والطوب بدون ثمن.

كان النيل يجري أمامهم. لونه مشرب بالحمرة أو الطمي المسكر، والقوارب ذات الأشرعة البيضاء تجري في الاتجاهين، وزوارق الصيد تمضي بالشباك قرب الشاطئ، وأجهزة الري مستنفرة بالعمال لتثبيت الجسر برش الماء. يقيمون أكواخا من القش، يستريحون فيها عند القيلولة، وعندما يمر عليهم المسئولون، ينبهون بعضهم لبيان اتجاه

مرور المسئول: نمرة يا بحري، أو نمرة يا قبلي، وكل كوخ يهتف ليسمع الكوخ الآخر..

وقفت أتفرج على اللعب، ، لم أتبين عيون السيجة. كان الزعيم وهو يرتدي طاقية من الصوف الباهت يضيف إلى طوله الفارع طولا جديدا، ويمنح بنيانه الفرعوني الضخم مهابة يفتقدها من حوله من اللاعبين. في نشوة تفوقه على الآخرين؛ طلب مني أن أجلس وألعب، أخبرته أني مسافر إلى المحروسة لأؤدي امتحان الكلية. دعا لي، وقال لي:

- هات لنا حاجة حلوة من السيدة زينب عندما تعود.

قلت له :

- إن شاء الله.

رأيتني أطرح شبكة السمك في المياه الجارية والتيار المتدفق. سمعت من ينادي على الشاطئ :

- احذر التيار .. احذر التيار!

اتجه الزورق بي نحو الشاطئ الآخر، ولكن الشاطئ كان طاميا. لا أستطيع أن أمر فوقه إلا إذا خلعت حذائي، وخوضت في الطين عاري القدمين. هتف بي أبي الذي لم أره منذ سنوات طويلة:

- هات يدك .. لا تخف ..

وسحبني إلى حضنه الدافئ الذي افتقدته، ورحت أبكي، وهو يهدئ من روعي...

الذرة

بطلعته الفطرية المتحدية جلس على رأس الحقل وحوله عدد من الصبية؛ وقد أوقدوا النار في أغصان الشجر الجافة، وراحوا يقشرون كيزان الذرة الخضراء استعدادا لشيِّها. لم أره من زمان بعيد، مذ تعافي من مرضه الذي سبق مرض الموت. وها هو يتوسط حلقة الأولاد فيستعيد الزعامة القديمة التي كان عليها أيام كنا شبابا، وقد كنا نصدِّره في المواجهات الصعبة لنحل مشكلة، أو نتفادى عقوبة.

ناداني بلهجة الزعيم:

- اجلس. نشوي ذرة طريًا لن تجد مثله عند البائعين.

قلت مترددا بين الرفض والقبول:

- أتمنى أن أتذوَّقه، ولكن معدتي كما تعلم لم تعد تهضم مثل هذه الأشياء.

- لا تخف. الأكل لا يقصِّر العمر!

جلست، وشاركت الصبيان في تقليب الذرة على الجمرات، ورائحة الشواء تغزو أنفي، وكان الوقت يمضي، والليل يفرد جناحيه على الوجود، والساقية تدور، وتئن في انتظام

لا يتغير، وقلبي يفيض بالحنين إلى الرفاق الذين غادروا الحياة وتركوني شبه وحيد بين قلة تعيش أمراض الشيخوخة.

تناولت كوزا من الذرة فألفيتني أمضي في طريق متربة؛ متوجها إلى عملي الأول وأنا شاب، أرتدي قميصا وبنطلونا جديدين، وحذاء لامعا، وأيامي تمور بالرضا والسعادة والقوة وحب الحياة..

أدركني الشيخ عبد الحليم الأزهري المعمَّم وهو يركب حماره الرهوان، قال لي فيما يشبه المزاح:

- انزل لتركب؟

ضحكت، ورددت عليه بما يشبه قوله:

- تأكل ذرة مشويا؟

فأجاب وكأن ما قلته حلم تحقق:

- أي والله ، إنه لشيء عظيم..

وأردف :

- هيا.. أسرع لنحتسي الشاي في المدرسة..

ووكز حماره وانطلق، وأنا أحث الخطا وراءه..

الشيخ

انتفخت أوداجه. وازداد كرشه ترهلا، واستبدل الطاقية البيضاء بالعمامة، وباغتني قائلا:

- لقد صرت مديرا في هيئة الدعوة إلى الله.

رددت بصورة آلية:

- ألف مبروك!

- هأنذا أصل إلى منصب المدير، وأنت لما تزل مجرد مدرس!

- الحمد لله على كل حال.

- لو كنت مثلي تحرك مخك ..؟

- أنا راض بما أنا فيه، وأحمد الله أني أسير على قدمي. أعلم أن لديك سيارة حديثة، وأقمت بيتا في المدينة الكبيرة ولكني قانع بالستر والصحة.

- مثلك لا يتغير أبدا..

- لا أفعل إلا ما يرضي الله..

- وهل أفعل ما يغضبه؟

نهض أحد أعمامه، وخاطبه بصوت عال وهو على المنبر بكلام فيه لوم وتقريع، وذكّره بأمه التي أهملها بعد أن أنفقت شبابها على تربيته وأخوته اليتامى. اهتز المنبر،

وحدث هرج ومرج في المسجد، واشتد اللغط، ولم يعد هناك أثر للشيخ..

قال لي قريبه وهو يحدق بعينيه الزرقاوين:

- من الذي ألبسه العمامة؟

نظرت إليه ولم أجب، ورحت أبحث عن عكازي الذي افتقدته في زحام المصلين...

الغراب

كأن ما حدث عصر اليوم يفسر ما رأيته في الحلم. رأيت في نومي أن أهلي قد عقدوا قراني وأنا شاب على إحدى قريباتي. لم أكن موافقا على هذه الزيجة، ولكنهم أقنعوني بالأمر لأسباب لم أعد أذكرها، ولكني بعد فترة عرفت أنها قد توفيت قبيل عقد القران مما أصابني بكدر عظيم.

لا أعلم سببا واضحا للحزن الذي امتلأت به حين استيقظت من نومي. وتحول هذا الحزن إلى غضب عارم حين سمعت صوت الكتاكيت الموجودة في الشرفة تصرخ وتصيح بصوت عال متلاحق، خرجت أستوضح الأمر فوجدت غرابا أسود يقوم بعملية قتل شرسة لأحدها، ويضرب بمنقاره الصلب رقبة الكتكوت الصغير التي يتفجر منها الدم الغزير، ويستعد الغراب بعد مهمته الدموية الشرسة للتحليق والكتكوت الضحية بين مخالبه. كدت أمسك به لولا أنه تخلى عن ضحيته، وطار مذعورا.

ازداد غضبي وحزني، فالكتكوت الضحية ما زال يرفرف، ويسلم الروح. سألت نفسي: ما ذا سأقول لحفيدتي حين تسأل عن الكتكوت، وهي تعده من أصحابها المهمين،

وتتابعه مع زملائه حين تستيقظ من النوم، وتضع لهم الماء والعليقة؟ وتحدثني عنهم وعن حركاتهم وأصواتهم وألعابهم وتطور أجسامهم وريشهم الصغير وألفتهم للبيت .

أصابني الإحباط، ليس لفقد الكتكوت، ولكن لجرأة الغراب، وشراسته الدموية، ووحشيته التي لا تعرف الرحمة مع أن البيت يسكنه بشر والشارع يكتظ بالناس والسيارات والقطط والكلاب!

قلت لنفسي هل كان الحلم إرهاصا بكارثة الكتكوت؟ ورحت أفكر في إجابة لأخفف وقع الصدمة على حفيدتي حين تسأل عن الكتكوت وما جرى له!

الإيجار

لم يكن حلمي هذه المرة واضحاً فهو أضغاث أحلام بكل تأكيد، لم أجد رابطا بين ما أرى وما يحدث على أرض الواقع، وهل هناك أصلا رابط بين هذا وذاك؟

رايت صور أولادي في مربعات متجاورة تشبه إعلانات السينما، ما المناسبة؟ لا أدري! ولكنهم في صف واحد، لا تشي ملامحهم بشيء.

ولا اعرف كيف رأيت مبنى من طبقتين جُهز تجهيزا جيدا وفي كل طبقة مطبخها وحمامها. سألت أبي:

- لماذا أجرته لهذا البنك؟

قال لي:

- لقد دفعوا لي ثمنا لا بأس به؟
- كم دفعوا يا أبي؟
- ثمانين جنيها. وسيرفعونها إلى تسعين!

بغضب قلت له:

- إنه مبلغ بسيط للغاية. إنه ثمن دجاجة بيضاء لا طعم لها!

ضحك وتركني، وهو يقول لي:

- لقد بنيت لك بيتا آخر أفضل منه.

تلفتُ حولي ، فلم أجد أثرا للبناء القائم ولا البناء الآخر الذي وعد به أبي.

صحوت من نومي مستغفرا ربي، وباحثا عن جرعة ماء؛ فقد احسست أن حلقي جف حتى تشقق!

القطار

في الفترة الأخيرة لم أعد أتذكر أحلامي أو مناماتي. بمجرد الاستيقاظ أنسي كل شيء. لا أحتفظ في رأسي بأثر مما أرى؛ مع أني أعيش في أحلام كثيرة ومتنوعة. هل لذلك سبب بضعف ذاكرتي بحكم الشيخوخة وتسرب كل الأحداث منها ؟ لا أدري ..

في صباح اليوم صحوت على بقايا حلم لم أفهم منه شيئا أبدا. لا أذكر بداية الحلم. ولكني رأيت نفسي في قطار يصل بين الإسكندرية وبلدتي. كان القطار صغيرا. عبارة عن عربة احدة قديمة جرباء، وتوقف في دمنهور للتغيير. كان يرافقني في السفر شاب أعرفه، راح يحثني بعد توقف القطار أن أسرع لنعبر القضبان إلى الرصيف المقابل لنلحق بالقطار الأخر الذي سيكمل الرحلة. كنت قويا وبلا عكاز. هناك وجدت قطارا على هيئة سيارة متهالكة من الطرز القديمة. سألت الشاب المرافق:

- هل هذا هو القطار الذي سيحملنا إلى البلدة ؟

هزّ رأسه بالإيجاب وهو ينفث دخان سيجارة كثيفا ومقززا، وقال:

- إنه سيوصلنا. وعزم عليّ بسيجارة، ولكني رفضت

شاكرا!

رايتني أستمع إلى الراديو قبيل صلاة الفجر. استهل المذيع نقل الصلاة من مسجد النور بالإعلان عن وفاة الشيخ فرج. تحدث عن خدمته للقرآن قارئا ومعلما في كلية القرآن الكريم لسنوات طويلة. تزلزل قلبي. فالشيخ في مكانة تلميذي وقدمت إليه بعض المراجع عندما كان يعد الدكتوراه. وزارني أكثر من مرة، ودعوته في أمسية دينية بمسجد القرية. وكان يهاتفني في بعض المناسبات، وجعلت الإذاعة صوته- وهو يتلو آية كريمة- مدخلا لبرنامج كنت أشارك فيه. كان صوته جميلا وعذبا، وفيه نداوة الأداء التي تفتقدها الأصوات الخشبية الجديدة!

حين مات أستاذ زميل في إحدى القرى المجاورة وجدته بين عديد من القراء المشهورين والمعروفين في خيمة العزاء بملابسه الريفية، وتذاكرنا أياما ماضية بعد أن عددنا ذكريات الزميل الراحل. كنت أتوق إلى عودة برنامجي بالإذاعة لأستمع لصوته المحبب، ولكن من يملك فرض هواه على الأقدار؟

صحوت أنهنه. فقد كان الشيخ فرج إنسانا طيبا ومخلصا، وهرعت إلى قدح الماء لأطفئ ظمأ لم أشعر بمثله من قبل.

السفر

كثرت في الآونة الأخيرة أحلامي التي تدور في محطات السفر. هل هي إنذار بالرحيل إلى العالم الآخر بعد أن طال العمر وتعددت المتاعب والآلام؟

رأيت صديقا أعرفه يشير إلىّ قائلا وموكب تشييع يمضي نحو محط القطار:

- لقد أقنعتهم أن العزاء قاصر على الجنازة، واستجابوا لكلامي.

لم أعرف مَن المتوفى. ولا أهله الذين أقنعهم صديقي، ولكني رأيت نفسي أمضي في شوارع مدينة مألوفة لي، وللأسف لا أعرف اسمها، كنت أتجوّل في أماكن عديدة تشبه المدارس والمستشفيات، شاهدت امرأة تمسك بتلابيب زوجها، وتصبّ عليه فيض لسانها الذي يقطر سما ناقعا. لم تخجل من الناس الذين وجهوا آذانهم نحوها يستمعون ما تيسر من إهاناتها والرجل يذوب خجلا ويحاول أن يتوارى ويغطس في ملابسه ليختفي من عيون الناس ولكن محاولاته لم تفلح، والمرأة لم تصمت. تقدم منها شخص عابر وصفعها صفعة داوية حولت خدها إلى حبة طماطم لينة فصمتت، وانكمشت بجوار زوجها البائس.

كان هناك عجوز يركب عربة يجرها حمار يترنح من الهزال وسوء التغذية، والعجوز يناجيه في نغمة رجاء كي يمضي ويشد العربة ويسرع في سيره. لكن الحمار لا يقدر على تغيير مشيته المتهالكة.

الناس يسيرون في كل اتجاه تركبهم هموم الزمان. لا ينظر أحد إلى أحد، وانا اتوكأ على عصاي أجر ساقي متعبا مجهدا ، أشعر بمسافة بعيدة بيني وبين بيتي. وجدت مكانا يشبه المصطبة على جانب الشارع فجلست مرهقا أمني نفسي بسرعة العودة إلى البيت، لم يقرّب المسافة إلا أذان الفجر حيث أخرجني من دنيا الأحلام إلى ارض الواقع.

نجيب

غريب أن أرى نجيب محفوظ في منامي. لم تكن علاقتي به وثيقة على المستوى الشخصي. بل إنه لا يعرف من أنا، ولم أحاول أن أتعرف إليه وأجالسه وأتحاور معه. التقينا في بعض المرات لقاءات عابرة، سلمت عليه كما يسلم العابرون، كان الرجل رقيقا مجاملا، ولم أشأ أن أقول له شيئا عن شخصي؛ فالمحيطون به كثر، وازدادوا بشكل كبير بعد فوزه بجائزة نوبل.

كانت علاقتي بالرجل وثيقة عبر كتاباته. أقبل منها ما يتسلل إلى وجداني وعقلي، وأرفض ما أراه بعيدا عن روحي وفكري. وقد كتبت عنه عددا من الدراسات لم أشأ أن أنشرها في سلسلة يتولى الإشراف عليها أحد الأشخاص المتاجرين به، والباحثين عن الرزق والشهرة وخدمة العصا الغليظة..

في هذه الليلة رأيت نجيبا في شبابه أو نضجه بمعنى أدق؛ يرتدي حلة أقرب إلى اللون الأصفر الداكن، كان شعره أسود، ونظارته الملونة تبدو من النوع الثمين، والبسمة تعلو شفتيه، وتبدو علامة البهجة على محياه حتى كاد لونه الأسمر يتحول إلى اللون الأحمر.

جلس نجيب على مقهى في المدينة الصغيرة التي أعرفها فوق مقعد متواضع وأمامه طاولة صغيرة، وأشار إليّ لأجلس معه. قلت له:

- سأعود إليك بعد قليل، هناك بعض من أعرف ينتظرونني منذ مدة لأساعدهم!

نظر إلي مبتسما، وكأنه يوافق على ما قلت.

حين رجعت إليه قلت له:

- لن أناقش معك قضايا الفلسفة والسياسة.

قال موافقا:

- حسنا. تكلم بما تريد..

- أريد أن أقول ..

وغامت عيناي في الحلم ، فلم أر الرجلَ أمامي ، واستيقظت لأجد جملة شهيرة له في إحدىَ رواياته تطن في أذني:

- الحرية!.. تلك الكلمة الملعونة!

ولم أجد رابطا بين رؤيتي لنجيب وهذه الكلمة.

الأرض

في المنام رأيتهم يوزعون أراضي على الأهالي. هرعت إليهم فوجدت ألوانا من الناس. أفندية وفلاحين من قريتنا وشبابا يرتدون ملابس تدريب وقمصانا ملونة وبنطلونات جينز وغير ذلك مما يدل على حداثة أعمارهم واهتمامهم بأشكالهم وخاصة قصات الشعر والطابع الرياضي الذي يعبر عن انتماءاتهم للأندية وحبهم للاعبين.

فاجأني الأمر أنهم يقيسون الطرق وخاصة جسر النيل الذي أمام بيتنا ويبيعونه قطعا مربعة ومستطيلة. قلت لأحدهم:

- هل ستعطونني قطعة على الجسر ؟

نظر إلى أحدهم بابتسامة ساخرة، وقال لي:

- إنك رجل طيب! ما لم تلحق بالتوزيع الآن فلن تحصل على شيء!

قلت في شيء من السذاجة:

- إن الطريق بهذا الشكل سيغلق، ولن يستطيع الناس ولا السيارات المرور أو الذهاب إلى مصالحهم.

كان الجسر مقسما إلى مربعات ومستطيلات، وكل واحد من أصحابها يجلس في داخلها ويبدو فرحا وسعيدا،

وأخذوا يحفرون استعدادا للبناء، وأنا لا أحير جوابا ولا أدري ماذا أفعل. هل سآخذ قطعة مثلهم أو أتركهم يسيطرون على الجسر؟

بدا الرجل الذي وصفني بالطيبة متجهما وتحول إلى كائن صغير لا أعرف كيف تحول إلى نقطة سوداء تطير في الأفق وتتلاشى، وأنا أجلس على شاطئ النهر وأمامي صفحة خضراء متماسكة صنعها ورد النيل ولا يستطيع مركب شراعي اختراقها. لقد صنع ورد النيل سطحا يشبه الخرسانة المسلحة التي تمنع الحركة فوق الماء في شتى الاتجاهات.

قلت لشخص يقف على مقربة مني لم أتبين ملامحه:

- هل تذكر أيام الفيضان؟ كنا نصطاد كميات كبيرة من البلطي الجميل ولا نجد من يشتريه!

بدا الشخص صامتا لا يريم ، فأردفت:

- وكان ورد النيل عبارة عن وريقات قليلة يجري بسرعة الصاروخ مع التيار!

نظرت إلى الشخص فلم أعثر له على أثر، وغاض ماء النيل من أمامي فقطعت مسافة طويلة من الشاطئ حتى قرب منتصفه على اليابسة، وفجأة تدفق الماء وارتفع المنسوب حتى وصل إلى صدري، فصرخت لينقذوني من الغرق.

استيقظت لأتحسس جسمي الذي غطس معظمه في الماء، فوجدتني جافا .. وتشهدت!

القاتلة

كيف جاءتني في الحلم ؟ لا أدري .

لم أر في أحلامي نساء منذ فترة طويلة! من رأيتهن كن عابرات في مشاهد عابرة . أما هذه المرّة فكان أمرها عجيبا وغريبا.

رأيتها حاسرة الرأس يفيض شعرها على كتفيها كنهر، ويمتد إلى أسفل طويلا ناعما فاحما مثل طريق حريري، وتحدق فيّ بعينين لم أستطع تحديد لونيهما؛ لأنهما كانا يتغيران باستمرار. حاولت أن تلمسني بإحدى يديها؛ فأصابني الجزع. وقلت بصوت مخنوق:

- ابتعدي عني .. ابتعدي عنِّي!

سمعت صوت ضحكة متكسرة تندّ عنها، وقالت:

- ألا تعرفني؟

قلت لها :

- لا أعرفك ولا اريد!

- أأنا مخيفة إلى هذا الحد؟ هل نسيتني؟

كنت مذهولا لا أعرف كيف أرد على هذه المرأة الجريئة. أردفت :

- أنا زوجة صديقك الحاج صبري؟

قلت لها من فوري :

- لقد ماتت من زمان بعيد. لا تجوز عليها غير

الرحمة.

- هل تراني ظالمة إلى هذا الحد؟ لقد أحببته!

- لقد رأى نجوم الظهر على يديك.. أنت امرأة مفترية وقوية ولا يقدر عليك غير إبليس!

- الله يسامحك. أنا طيبة وهو الذي لم يفهمني.

- يفهمك أولا يفهمك..! ما شأني أنا بك؟.. أنت والشيطان صنوان!

نظرت إلي وحزن خفيف طرأ على ملامحها المتباينة، وقالت لي :

- كنت أحبه ولكنه لم يصغ إلي أبدا.

لزمت الصمت، وكنت أود أن أقول لها: "إنك كتلة نار لا يجاورها أحد"، ورددت في نفسي "يثيرون الصخب عن ذكورية المجتمع، والمرأة المظلومة.. المرأة المقهورة.. المرأة المسحوقة.. ولا يشيرون إلى المرأة التي تقتل الرجل قهرا". حين رأت صمتي تغيّر شكلها سريعا، ورأيت نصفها الأسفل يتحول إلى ذيل سمكة. باغتتني:

- أنا عروس البحر .. لا بد أن تتزوجني!

أطلقت ساقي للريح ورحت أجري في طريق لا أعرفه. لم يكن عكازي معي، ولا كنت مجهدا أو ضعيفا، كنت في شبابي أعدو فرحا بنجاتي من هذا الكائن الذي رأيت صورته قديما في كتب الأطفال، واستيقظت أشعر بأنفاسي تتقطع من شدة الجري والتعب، وبحثت عن عكازي لأصل إلى غرفة أخرى!

الفجر

رأيته في الحلم ينتزعني من حضن أمي . كنت في الثامنة ولكني رأيت حجمي ضئيلا للغاية . يشبه حجم قطة صغيرة . ثم رأيتني في الوحدة الصحية بالقرية الكبيرة المجاورة . كنا نسميها المستشفى وأحيانا " المجانة " أي التي تعالج المرضى مجانا . كانت معي إحدى قريباتي تمسك بيدي ، وباليد الأخرى ولدا من حارتنا غاب عني شكله ، واسمه . وقفنا في باحة الوحدة وسط الزحام . رجال ونساء وأطفال ورضع . غابة من الصياح والصراخ والأصوات العالية كأنه يوم الحشر ..

قلت لقريبتي:

- كيف سنصل إلى شباك صرف الدواء؟

ضغطت يدي ، وقالت :

- اصبر . سنصل إن شاء الله !

أخذنا نناضل الناس ونخترق الزحام حتى وصلنا إلى الشباك الزجاجي الذي تحميه شبكة حديدية قوية ، وبها فتحة مستطيلة في الأسفل يوزع منها الدواء . كانت الأيدي الممدودة نحو الشباك كثيرة جدا . لا أعرف

كيف استطعنا الحصول على زجاجة الدواء الأسود ؟ هل كانوا يسمونه "زرنيخ" مع الحديد ؟ ومعها قطعة من المرهم ، ثم كوب به شربة زيت الخروع لطرد ديدان الإنكلستوما!

في الشارع الواسع المترب جذبتنا لمة خلق كثيرين أمام قصر الباشا القديم الذي علا أسواره الخارجية نشع المياه . كان هناك جهاز راديو ضخم ، يذيع أخبار الملك السابق والقائد المحبوب محمد نجيب ، ويتحدث عن الضباط الأحرار والعهد الذهبي القادم ..

قلت لقريبتي :

- إني جائع يا خالة .. جائع يا خالة ..

سحبتني والولد الآخر إلى بيت فلاحي بابه واسع وجدرانه من الطوب اللبن ، ومدخله يمنح الجالس فيه شيئا من الطراوة . جلسنا أمامه ، وجاءت ربة الدار ببعض الأرغفة البيتي وقطعة من الجبن القديم وقطعا من اللفت المخلل وقُلّة من الماء البارد . أكلنا وشربنا وشبعنا ودعونا للمرأة صاحبة الدار .

قلت للخالة :

أنا حاف والأرض ساخنة ولا أستطيع السير في الصهد ، قالت :

- امش بجانب الحائط . هناك جانب طريّ .

قلت لها : تعبت .. استدارت وقالت : سأنادي على صاحب الحمار القادم هناك ، وأشارت بيدها لتركب معه ..

فجأة وجدتني في مطار فخم يشبه مطار القاهرة . كنت أرتدي حلة فاخرة دون رباط عنق . كان معي بعض المرافقين ، وتقدمنا إلى الجوازات بوثائق السفر لختمها .

قال الضابط المختص :

- آسف يا معالي الوزير . لن تستطيع السفر !

بوغتّ ، وقلت له : لماذا يا بني ؟ إني ذاهب لأوقع اتفاقية بين دولتين !

قال : يؤسفني أن جواز سفرك ملغى ، فقد مضت عليه سبعون سنة !

نظرت حولي لم أجد المرافقين . رأيت عدسات التلفزة والمصورين وميكرفوناتهم تتجه إلي ، وتسالني عن تشكيل الحكومة الجديدة .أحسست بشيء يخنقني ويكتم انفاسي ويضغط على صدري وأجفاني .

جاء أذان الفجر لينقذني من العدسات والميكروفونات وهجمات الناس .

تشهدت واستغفرت وقلت اللهم اجعله خيرا !

مولانا

رأيته في الحلم جميلا ومبتسما . وجهه يشعّ بالضياء والنضارة . كان شابا وسيما تعلو رأسه عمامة شامخة وفوق عينيه نظارة مذهّبة لعلها للقراءة . اندفعت إليه مرحبا ومهللا . قال لي : لماذا لم توافني بأعداد الاعتصام؟ لقد اشتريت المجلة من الباعة الذين حول إدارة الأزهر. حصلت على عشرين نسخة لأوزعها على الضيوف الذين يريدون معرفة رأيي!

قلت له :

- إن الحاج حسن سيوافيك بخمسين نسخة أخرى .

قال وهو يبدي فرحه بنشر موضوعه :

- اشكره وقل له :

إن نشر المقال عندكم بعد أن رفضت صحف الحكومة؛ يؤكد أن مصر بها علماء دين لا يركعون إلا لله. لقد رفضت ما أرادوا فرضه علينا مخالفا للشرع ..

وتهيأت للثناء عليه، ولكني لم أجده.. صحت بأعلى صوتي :

- يا مولانا .. يا فضيلة الإمام الأكبر. يا دكتور عبد الحليم .. ولكن صوتي غاب في فلاة لا نهاية لها ..

مضيت أبحث عنه وأنا أتلفت يمينا وشمالا. لم أجد أحدا، وصلت شاطئ النيل عند قريتنا، رأيته قادما من مركب ذات شراع. كان يسير فوق الماء، ولكن وجهه مكفهر، مليء بالغضب وينطلق الشرر من عينيه :

- كيف تسمحون بإلغاء خانة الدين في الشهادات المدرسية ؟

حاولت الإجابة ولكني صوتي لم يخرج من حلقي:

- إنهم ينقضون الإسلام عروة عروة. يطالبونكم بفصل الدين عن الدنيا، ويجعلونه مادة للتندر والسخرية وأنتم صامتون. ثم يطلبون أن تعيشوا جالية في بلدكم. على فكرة قرأت مقالك " الجالية الإسلامية في مصر" وكنت سعيدا به .

اختفى مرة أخرى، وكدت أطير من الفرح لأنه قرأ كلامي. حاولت أن أشكره وأحاوره، ولكني استيقظت لأجد الدنيا حولي صامتة ساكنة، والليل يرخي سدوله على العالمين .

خديجة

في نومي جاءت خديجة. رايت وجنتيها محمرتين في لون الطماطم. وضعت يدي على جبينها أحسست نار الله الموقدة تلسع يدي، فتقطع قلبي. حملتها على الفور وأسرعت بها إلى المستوصف المجاور، كنت قويا وفي ريعان الشباب .قالت :

- يا جدي ، أين عصاك التي تمشي بها ؟

قلت لها :

- لقد شفيتُ يا أمي .

قال طبيب له وجه أرنب وصوت قطة :

- الحرارة ٤٠ ، ويلزم علاج عاجل .

كبرت خديجة ونحن في طريق العودة، كانت عصاي في يد، وخديجة في اليد الأخرى. غنت : " يا كتكوت يا صغيّر .. مالك كدا متحيّر ".. وضحكت من الأعماق. قابلتني أمي التي لم أرها منذ ثلاثين عاما فاتحة ذراعيها لحفيدتي، ورأيت مصعدا في عمارة يحملنا نحن الثلاثة إلى شقة طيبة الهواء، وجلست أمي على أحد الكراسي تقرأ سورة الفلق.. وكانت خديجة تردد وراءها بصوت ألثغ جميل .

الصرّة

رأيته في المنام يمضي في حشد طويل من الرجال والنساء والأطفال، يحمل صرّة كبيرة عن طريق عصا تمتدّ على كتفه. سألته:

- إلى أين يا دكتور؟
- نحن هاربون من الموت!

لم يلتفت إلي. كان يمضي بخطوات سريعة ولكنها منهكة. ملامح وجهه مرهقة يبدو عليه أنه لم يذق طعم النوم من زمان طويل. الحشد يمضي وسط عويل الأطفال وبعض النساء وهمهمات الرجال، وعلى رءوسهم وأكتافهم وفي أيديهم بعض المتاع الذي استطاعوا حمله في رحلتهم الطويلة إلى المجهول.

نظرت ورائي فرأيت لافتة كبيرة مكتوب عليها كلمة الموصل بحروف كبيرة . هرولت وراء الدكتور عماد وسألته عن الصرة التي يحملها، قال لي بنبرة حزينة :

- إنها كتبي التي ألفتها؟

قلت له:

- لماذا لم تتركها في كلية الآداب أو المتحف الحضاري؟

قال بأسى:

- لم تعد هناك كلية ولا متحف!
- والبيت؟

- البيت هدم مع بقية بيوت المدينة. الموتى يفرشون الشوارع والبيوت وكثير منهم تحت الأنقاض!

قلت له:

- تعال معي إلى قريتنا؟

أشاح بوجهه ومضى، هتفت به:

- ألا تفسر الحاضر بعد أن فسرت التاريخ؟

بدا كأنه لم يسمعني، وانداح مع ركب السائرين.

رأيتني أحمل روايته "السيف والكلمة" التي كتبها عن دخول التتار إلى بغداد وقتل الخليفة العباسي، وخيانة المحيطين به. ودخلت المحاضرة ولكني لم أجد طلابا، جاء العامل ليساندني وأنا أهبط درج المنصة وأمضي معه لصلاة الظهر.. غامت الرؤية أمامي، وأحسست بضيق في صدري جعلني استيقظ لأستقبل الفجر!

دمعة

كأنني كنت مسافرا إلى بلد أعرفه، وفي الحلم رأيت أصدقاء قدامى يجلسون على ما يشبه المصطبة ويذكّرونني بصديقي الراحل الأديب الكبير نجيب الكيلاني. استغربت معرفتهم به. قالوا لي :

- أما تذكر قصة جده التي رويتها لنا وأثارت أشجانه فبكى وهو على سرير المرض، ولما دخلت عليه السيدة زوجته سألته:

- لماذا تبكي يا نجيب ؟

فقال لها:

- لقد دفنت جدي الآن!

فدهشت من إجابته، وقالت له:

- إن جدك مات منذ عشرات السنين فكيف تدفنه الآن؟

قال لها :

- لقد دفنته في الرواية ، كان يقصد خاتمة روايته مملكة البلعوطي .

كان نجيب يحب جده ابراهيم عبد اللطيف الذي أطلق عليه أهل قريته شرشابة غربية لقب البلعوطي؛ بعد أن أبلى بلاء حسنا في مع أخيه في مواجهة عصابة شرسة فرضت هيمنتها على سوق البهائم، وكانت لا تسمح لأحد

بالبيع والشراء إلا بعد دفع إتاوة، ومن لم يمتثل يتم ضربه وتجريده مما يملك، ولكن البلعوطي حين تعرض لمثل هذ الموقف استل هراوة غليظة وهتف بأخيه قائلا: اضرب يا ولد، وكانت معركة كبرى شجعت بقية أهل السوق على الانضمام إلى البلعوطي وأخيه، حيث استطاع الرجلان قيادة المظلومين وتحقيق نصر عظيم تحدثت به الركبان، ولم تقلل منه الجروح والإصابات.

ومن يومها أطلق عليه الناس اسم البلعوطي، وتردد اسمه في القرى المجاورة، واستدعاه أكبر أغنيائها ليتولى الإشراف على أرضه وممتلكاته، ولما كان البلعوطي طيبا يخاف الله ولا يحب الظلم فقد احتكم إليه الأهالي في القرية والقرى المجاورة لحل مشكلاتهم. وكتب عنه نجيب روايته الجميلة، وبكى وهو يختم آخر سطر فيها حيث كان يصور مشهد جنازته المهيبة، وقد توافد عليها عدد غفير من القرى المجاورة بالإضافة إلى أهل قريته جميعا!

لم أستطع الجلوس مع أصدقائي، ولكن وجدتني أتحرك فيما يشبه النادي الفخم، ويجلس فيه أشخاص أعرفهم، ثم رأيت شخصا يشبه البلعوطي يتحرك بينهم ويحظى باحترامهم، ولكنه اختفى فجأة. سألت عنه فقال لي أستاذ صديق: إنه مات! فسقطت من عيني دمعة ساخنة!

واستيقظت مرددا الشهادتين، والترجيع! إنا لله وإنا إليه راجعون.

الأذان

رأيتني في المنام أمضى على الجسر الجديد، وهو سد ترابي أقيم منذ قرن أو يزيد ليصدِ فيضان النيل الثائر قبل إقامة السد العالي، ويحمي البيوت المطلة على النهر الذي كنا نسميه البحر. كانت البيوت تتعرض لخطر المياه الدافقة فكان الجسر يبعد هذا الخطر ويتيح لنا نحن الأطفال في ذلك الزمان بركة ممتدة نتيجة الرشح أو النشع نخوض فيها ونلهو بقوارب صغيرة من الصفيح؛ نصنع لها أشرعة وسكّانات ونحمّلها قطعا من الحصى أو الطوب لتتوازن فوق سطح الماء.

ما الذي جعلني أترك الجسر وأهبط إلى المريس – طرح النهر - ناحية النهر؟

لم أدر إلا ومجموعة كبيرة من الكلاب تشبه قطيع الغنم تمضي في أثري، ثم تتدفق بسرعة فتجعلني في قلبها، رحت أهشِّها وأبعدها عني ، ولكن رءوسها تحولت إلى ما يشبه رءوس الخنازير! أحسست بغضب كبير وركبني همَ عظيم. رأيت من يأخذ بيدي وينقلني إلى المسجد لأرفع الأذان. كان صوتي جميلا يدل على خبرة قديمة كأنني أقلد الشيخ عبد العظيم زاهر- رحمه الله. رحت أترنم

بالتكبيرات والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلاح، ولكنني أدركت أن صوتي يختنق. مرة يخرج طبيعيا، وأخرى يبدو متحشرجا. ناديت: الصلاة خير من النوم. الصلاة خير من النوم! لكن النداء لم يخرج! تساءلت من الذي يخنقني؟ .. من الذي يخنقني؟..

هتفت: إليّ بجرعة ما .. ماء..، وما بين النداء والاختناق كنت أنهض من نومي مستعيذا بالله من الشيطان، فقد كان الفجر على الأبواب!

الفكة

لم أعلم ما الذي جاء بي في الحلم إلى هذا المكان الغريب. رأيتني كأنني أشتري أشياء من أحد الأشخاص، وقد أعطيته ورقة مالية ليتقاضى ثمن ما اشتريت. ولكنه قال لي:

- إن الفكة التي كانت معه قد ذهبت إلى المرأة التي غادرت المكان حالا، فالحق بها لتفك ورقتك وأتقاضى الثمن!

هرولت وراء المرأة التي كانت تحمل أشياء لا أذكرها، وطلبت منها أنها أن تبادل الورقة النقدية بالفكة التي معها لأؤدي للبائع حقه، ولكن المرأة تحولت إلى نمرة شرسة ، ورفضت رفضا قاطعا.

قلت لها:

- إن الرجل لن يستوفي حقه؟

قالت بغلظة :

- وما شأني أنا ؟

عدت كسيرا إلى البائع الذي تناول الورقة النقدية مرة أخرى ، وصعد على سلم في دكانه ليحضر بعض الأصناف لزبون آخر. وتركني أحملق في البضائع والناس الذين يدخلون الدكان ويخرجون. وصحوت بعد انتظار طويل، وملمس الورقة النقدية في يدي!

مريض

على مشارف القرية رأيته بعد موته بثلاثين عاما. كان يرتدي ثوبا ريفيا أقرب إلى الاصفرار، وفوق رأسه طاقية بيضاء مما يرتديه الفلاحون، وكان يتجه نحوي، ولكنه بدا مريضا ومرهقا، لم يكلمني ولم أتحدث إليه، وتركني ومضى..

حاولت أن أمضي في أثره ولكنه اختفى ..

وجدتني أدخل بيتا: إنه بيتنا القديم. لم أجد فيه أثرا لحياة. كانت الثلاجة الفخمة في زمنها دون أبواب وفارغة تماما، بعض الأثاث ملقى بلا نظام. رحت أبحث عن ابني الأكبر، لفني حزن لا أعرف مصدره، عدت أدراجي نحو الطريق، واستيقظت على صوت إعلان في ميكروفون

المسجد، ينعى امرأة في مثل عمري كانت معي في المدرسة الابتدائية قبل ستين عاما أو يزيد، وفي مرضها الأخير نقلوها من بلدة زوجها الراحل إلى بلدتنا لتحظى برعاية أقاربها. إنا لله وإنا إليه راجعون!

الموت

رأيت وفاتي في الحلم. كيف أموت بهذه البساطة؟ سألت نفسي وأنا أجلس في محاضرة للطلاب أو ندوة علمية لا أذكر تفاصيلها. لا أعي جيدا ماذا كنت أفعل، ولكن الذي أذكره أني متّ وأنا أتكلم أو أتحدث إلى من يسمعني. كانت الجملة التي نطقتها قبيل وفاتي تبدأ بفعل مضارع نسيته وصعدت روحي بعد نطقه، واندهشت لأني أموت هكذا دون مقدمات!

كانت صحتي جيدة، وأتحرك بيسر وطلاقة، وأسافر إلى العمل أو المدن المختلفة وأقود السيارة دونما إحساس بالتعب أو الإرهاق، كان الطريف أن أقرأ برقيات العزاء منتشرة أمامي بعد موتي تثني عليّ وعلى إنتاجي العلمي والأدبي والثقافي. لم أسمع كلمة من ذلك الثناء في حياتي.

كان الأكثر طرافة تلك الرسالة التي بعث بها صديق قديم يغبطني على الموت دون معاناة الأمراض والمتاعب الصحية والخلافات الزوجية! وفي رسالته الطويلة المكتوبة بخط جميل وقد قرأتها في الرؤيا تعداد للأمراض التي لحقت به بسبب حبه للطعام، وتفصيل دقيق لجحود زوجته التي عاش معها عقودا ولم تبسط جبينها يوما في وجهه، وحين عرفت بمرضه تجلت أنانيتها،

وأعطته ظهرها، وأهملته تماما، فصار يتسول الخدمة من الجيران بعد أن تفرق الأبناء والبنات في بيوتهم وانشغلوا بالأحفاد والأسباط. علق في أسى :

- رفعتها من انخفاض، ولكنها هوت بي من أعلى!

أردف يقول:

- تسألني لماذا تركتها تفعل بي ذلك، وكان بإمكانك أن تتزوج أخرى أو تطلقها؟

يجيب الصديق في مرثيته التي شعرت أنه يرثي بها نفسه ولا يرثيني:

- لقد شربت السم من أجل أولادي. لقد جربت معها كل الوسائل الناعمة والخشنة كي نتفاهم على الأقل، ولكن معدنها كان مزيفا ووجدانها صخريا ولسانها حديدا!

لاحظت أن الرسالة أخذت تتقلص، والحروف تتلاشى، حتى اختفت تماما، وإذا بي أجلس مع صديقي القديم وأداعبه قائلا:

- ألم تكن قادرا على قول كلمة حلوة أو تتغزل فيها لتمضي الأمور بطريقة أفضل؟

أشاح بوجهه عني وولى ظهره ومضى بعيدا، وسمعته يقول في قهر:

- لا فائدة!!

حين سمعت أذان الفجر أدركت أنني ما زلت حيا، وأن أعضائي تتحرك، ولساني يتمتم : اللهم اجعله خيرا...

العشق

كانني كنت معه على موعد، وسألني حين راى الدهشة على ملامحي لوجوده:

- ألا تعرفني؟

داريت دهشتي، وقلت له:

- بلى! أعرفك، أنت شمس.. شمس التبريزي، معلم جلال الدين الرومي!

ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال:

- بل تلميذه.

استعدت تلقائيتي، ورحت أجادله محاولا إقناعه بأنه معلم جلال الدين الرومي، ولكنه في تواضع، أخبرني أن الصوفية لا يؤمنون بالطبقات الدنيوية، وأنهم يبحثون في ملكوت الله عن الحب، ولا شيء غير الحب!

قلت له بشيء من الحذر، محاولا جره للحوار:

- أي حب تبحثون عنه والأشرار لا يبقون على حرث ولا نسل، ويدمرون البشر والحجر، كيف نردهم عن التخريب والتدمير والقتل بالحب الذي تتكلم عنه؟

كأنه يسحب نفسا عميقا، ردّ بهدوء:

- لا شأن لي بالجيوش والحروب. إني أريد من الناس

أن ينظروا في داخلهم ليطهروها من الحقد والكراهية، ويتجهوا إلى المحبوب!
كان شمس التبريزي يولي الأدبار وأنا أجري في أثره ويظهر أمامي بصورة ضخمة كتاب "قواعد العشق الأربعون" لكاتبة من أصل تركي، وراحت صورة الغلاف تكبر وتكبر حتى ملأت الفضاء، وأنا أجدّ في أثر شمس لأناقشه في قضايا الصوفية والواقع وبساطة الشريعة، ولكن الفجر كان يحركني لألحق بصلاة الجماعة.

المعاش

قابلني في الحلم. لم أره منذ زمن طويل. كان معتدا بنفسه ويبدو سعيدا.. هكذا تصورت. قال لي بنبرة حماسية:

- لقد سبقتك في الخروج إلى المعاش. ولدت قبلك بسنتين. صحتي لا بأس بها.

وأردف في تتابع نشط:

- أذهبُ إلى السوق، وأمشي مسافات طويلة. ومفاصلي جيدة تمكنني من الصلاة والركوع والسجود دون صعوبة. إني أصلي مثل الشباب..

ثم تغيّرت ملامحه بغتة وهو يكمل:

- ولكن...

سكت قليلا ولما رأى دهشتي وتشوفي لما سيقول، أوضح:

- ولكن المعاش .. المعاش قليل.

قلت فيما يشبه السذاجة:

- الحكومة رفعت المعاش!

عاجلني بما يشبه المرافعة:

- الحكومة تقول إنها سترفع المعاش بنسبة عشرة في المائة أو حتى خمسة عشر. الأسعار ارتفعت واشتغلت.

السلع زادت بنسبة كبيرة. قرص الطعمية صار ثمنه أكثر من جنيه. هناك سلع زادت نسبتها إلى ستين وسبعين في المائة. وبعضها تجاوز المائة في المائة ....

غامت عيناي وهو يتدفق في مرافعته النشطة، وتذكرت أن المعاش لا يكفي ثمن الأدوية ولولا ستر الله لكان الأمر صعبا ومخجلا..

وجدت نفسي في الجامعة ألقي محاضرة عن تطور الشعر الحديث. رفع أحد الطلاب يده وسألني :

- هل الدكتور أبو الطيب المتنبي شاعر حديث؟

ضحكت، بل قهقهت، وتذكرت ما قاله زميل عن طالب ذكر في ورقة الإجابة شيئا مثل هذا، وذكر الصديق أبا بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان مسبوقين بلقب الدكتور. تحسرت على التعليم في بلادي، وأحسست أن قلبي يقطر دما. أجبت الطالب بهدوء، ولكني ألفيتني على السرير أقرأ في ديوان المتنبي، وأتلو شعره الذي يذم فيه زمانه وناسه.. وسمعت طرقا خفيضا على الباب، فاستيقظت لأجد حفيدتي تقف وراءه تضحك، وتطلب أن أحضر لها الحلوى..

الوحيد

رأيته في المنام وحيدا. كان يمضي بزيه الأزهري وحده دون مرافقين كالعادة. فلا مشايخ بجواره ولا موظفين ولا سيارات ولا حراس. كانت جبته تكاد تتكرمش إلى أعلى ويبين من أسفلها جلباب أبيض يكشف عن مفارقة غريبة. عمامته كما هي ولكنها تبدو متربة؛ وكأن صاحبها قادم من صحراء بعيدة. شاهدته يتجه نحو مقعد حجري على جانب الطريق. لم أشأ أن أكلمه فقد كان بيننا ما يشبه الحاجز الزجاجي.. تذكرت أياما مضت كان فيها صاحب القول الفصل في أمور كثيرة.. قلت لأصحابي:

- إن الرجل لم يعد منا!

قال أحدهم مستبقا الآخرين:

- وهل كان منا في يوم ما؟

قال شخص لا أعرفه:

- طوال عمره يبحث عن الضجيج!

قال الأول في سخط:

- ألا تذكرون أنه كان عضوا بارزا في الاتحاد الاشتراكي، وأوشك أن يكون وزيرا لولا صديقه في

التنظيم الطليعي الذي وشى به كذبا فسحبوا ترشيحه، وحرموه من المنصب!

رد عليه بعضهم:

- لكنه كان طيبا في كل الأحوال.

بغضب مكتوم، سمعوا من يقول:

- لقد كان يفتي كما تقول الحكومة!

رأيتني أعود إلى صباي، وأنا أرتدي العمامة، وأمضي في طرقات معهدي، وأحلم بالحصول على الشهادة الابتدائية، وأنتظر الوصول إلى التفوق والتدريس وأتمنى المشيخة الكبرى، ولكن القدر كان له توجيه آخر..

هأنذا أجلس على كرسي عال وأتلو القرآن الكريم ولكن الأذان يقرع سمعي فأستيقظ لأجد الفجر ينادي..

الامتحان

كنت أتوضأ بأحد المساجد القديمة التي زرتها في صباي. لا أذكر في أي بلد بالضبط، وحين انتهيت من الوضوء رفعت ثوب جلبابي لأمسح وجهي ويدي بينما كنت أردد الشهادتين، وبعض الأدعية التي تتضمن ذكر ربي. كان شعر ساقي ويدي كثيفا، والناس يتواردون على الميضأة وهم صامتون..

في قاعة كبيرة جلست على طاولة صغيرة لأؤدي امتحان الثانوية العامة من منازلهم. كان العقاد يجلس بالقرب من طاولتي يعتمر قبعة رمادية ويلف رقبته بكوفية طويلة تزخرفها المربعات ويجيب على أسئلة الامتحان. سألت نفسي:

- ما الذي يجعل العقاد يدخل امتحان الثانوية بعد أن بني مجده الأدبي بالشهادة الابتدائية ؟

نظرت في ورقة الامتحان واعتقدت أني أجبت على كل الأسئلة. خرجت إلى الفناء الواسع وراجعت الإجابة، اكتشفت أن هناك سؤالا كان محشورا أعلى ورقة الأسئلة لم أنتبه إليه ولم أجب عنه. وراجعت سؤالا آخر فعرفت

أنني لم أحسن الإجابة.

لفني حزن عظيم بسبب التقصير. انتظرت الأستاذ العقاد في الفناء حتى يخرج، ولكنه لم يظهر. سألت عنه؛ فقيل لي: "لقد سافر إلى أسوان!".

تأبطت كتبي ومضيت لأعود إلى قريتي...رأيت أهل القرية يمتطون ظهور الحمير ومعهم ما اشتروه من أغراض.. كان عددهم كبيرا وسمعت صوتا عاليا خشنا مزعجا أيقظني من النوم، فاكتشفت أنه صوت المكنسة التي تتحرك على سجاد الصالة لتنظيفه من الأتربة!

العمدة

جاءني في المنام مبتسما مشرقا. كان يرتدي جلبابه البلدي الأبيض، وفوق رأسه الطاقية البوبلين ذات الحائط.

قلت له في دهشة:

- ألم تمت منذ شهور؟ كيف عدت إلى الحياة؟

ضحك، وقال ببساطة:

- عمر الشقي بقي!

قلت له مستغربا:

- إن الموت يضع نهاية الأعمار. وقد انتهى عمرك يوم شيعك الناس، وأقام لك الأبناء سرادقا عظيما استقبلوا فيه المعزين من كل أنحاء البلاد المجاورة.

ضحك وقال:

- قلت لهم يكفي العزاء عند تشييع الجنازة. وأنفقُوا ما تصرفونه في السرادق على الفقراء والمحتاجين. ولكنهم كما تعلم يحبون المفاخرة والاستعراض..

أمَّنت على كلامه ، وسألته مجددا:

- كيف عدت إلى الحياة.

أجابني فيما يشبه الألغاز:

- من أخبرك أنني مت؟ أنا حيٌ. فقط، نقلت مقر

الإقامة إلى مكان آخر..

- كانت حياتك حافلة بالأحداث وخرجت منها سليما معافى!

قال بشيء من التيه والفخر:

- ربك كريم. كنت أستخدم العقل والعلاقات..

دارت بي الأرض، ونظرت إليه فلم أجده، واستيقظت على صوت إعلان يذيعه مكبر الصوت في المسجد يعلن عن وفاة الشيخ عبد الفتاح أكبر المعمرين بعد العمدة حيث جاوز التسعين، فترحّمت عليهما، وهتفت: إنا لله وإنا إليه راجعون!

الصول

منذ سنوات لم أره. عرفت أنه خرج من الخدمة إلى المعاش، وقدم طلبا لمواصلة العمل بمكافأة، ومضى عامان أو ثلاثة لم ألتق به. علمت من مصدر غير مؤكد أنه قضى نحبه، وذهب إلى لقاء ربه. ولكني رأيته الليلة في الحلم، لم يكن هو حضرة الصول الذي أعرفه. أين الجسم القوي الطويل العريض الذي كان يخيف المتهمين، ويرعب اللصوص، ويجعل المتهمين السياسيين يعترفون بما لم يفعلوا؟ لقد أصبح ضعيفا نحيلا. عيناه شبه مقفلتين، ذقنه أشعث، شعره ينسدل على جبينه ويتوكا مثلي على عصا..

كان يركب توك توك من دورين! يركب هو في الدور الأرضي، و في الدور الثاني تركب زوجته وهي من قريباتي البعيدات، ولكنها تودّ أسرتي باستمرار. رأيت سائق التوك توك طفلا صغيرا في حجم كتكوت ذي عينين كبيرتين.

أخبرني بعد أن سلّم عليّ أنه ترك العمل بالمكافأة لأن صحته لا تحتمل، وأن الغلاء يعصف بالمعاش. قلت له مواسيا:

- البركة في الأولاد

قال بأسى:

- كل منهم يبحث عن نفسه ومصلحته. وبقيت أنا والأم ندبر المعاش بصعوبة، ونستغني عن أشياء كثيرة.

أخبرته أن الأمور تتحسن، وأن المستقبل أفضل، ولكنه بدا ناقما، وسألني عن الأولاد، ثم أعرض عني بينما الطفل الصغير ينطلق بالتوك توك في سرعة الصاروخ. نهضت على عكازي، وحاولت اللحاق به، ولكنه اختفى. لم تفلح نداءاتي التي يبدو أن من ينام بجانبي سمعها، فأيقظني، وهو يسألني عن حالي وقد اعتراه القلق، ويخبرني أن صوتي كان عاليا.

ابتسمت، وقلت:

- لقد كنت أنادي على التوك توك .

ولم أشأ الزيادة!

الفندق

حلمت بالأمس كأني في مؤتمر دولي يدور في مجال تخصصي العلمي. رأيت أصدقاء من العواصم العربية والأجنبية. كنت أتحرك رشيقا خفيفا بلا عكاز. كان بعض أصدقائي العرب يستغرقون معي في الحديث والفكاهة، ويعلقون على ما يجري من وقائع وأحداث هنا وهناك.

فجأة رأيتني وحدي في فندق عريق. صالاته واسعة طويلة، حوائطه عالية مدهونة بألوان رمادية فاتحة. نوافذه ضخمة تضيء الغرف إضاءة كاملة وتشعر كأنك في الشارع ولا أثر هناك للظلال أو الظلمات..

بحثت عن أصدقاء المؤتمر لم أجد أحدا. تجولت في طرقات الفندق فظهر شخص ظننته من موظفيه؛ استوقفته لأسأله عن الأصدقاء، فإذا به يخرج أجندة كالحة، ويدون فيها ما بدا أنه استجواب لي. كانت ملامح الرجل تتحول إلى صورة وحشية من صور رجال الأمن في الدول الشيوعية. راح يسألني :

- اسمك رباعيا..

قلت له بغضب :

- إني عضو في المؤتمر، وأنتم تعرفوني اسمي، وقادم من بلدي لأشارك وأقدم نتائج بحثي ودراستي.

استمر في استفزازه:

- كم سنك؟ وما وظيفتك، وأين تسكن؟

في هجمة مرتدة، سألته:

- ومن أنت ؟ وماذا تفعل هنا؟ ولماذا تستجوبني؟

باغتته الهجمة، فأخذ يتراجع:

- لقد جئت لمساعدتكم!

- تساعدنا في ما ذا؟

وجدته ينكمش، ويصغر حجمه، حتى تلاشى. وتدفق أصدقاء المؤتمر من كل صوب يهنئونني على السلامة، وراحوا يعانقونني، ويتساءلون:

- أين كنت؟ بحثنا عنك كثيرا ولم نجدك.

نظرت إليهم وذهني شارد، أفكر في الرجل الذي كان يستجوبني، وسمعت صوت الفجر يتدفق إلى أذني بصوت جميل غير مألوف، فنهضت أستغفر ربي وذهبت للوضوء!

الطفل

رايته جميلا تشع الفرحة من عينيه الصغيرتين، أو شكت أن أحتضنه، ولكنه اختفى، لا أعلم اين ذهب، ولكنني وجدت قدماي تتوقفان عند مبنى لونه أصفر وعليه لوحة باهتة مكتوب عليها " محكمة الأسرة"، وهناك شابان، رجل وامرأة، يتشاجران، وتتطاير منهما ألفاظ نابية، ويكادان يتماسكان، وتجمّع ناس يحاولون الفصل بينهما وتهدئتهما، ولكن دون جدوى..

شاهدت أمي تحنو على وأنا طفل، واحتضنتني وهي تشتري لي حلاوة زمان يا ملبن. وعلى الرصيف الآخر جلس القرفصاء رجل عجوز، يعتمّ عمامة بالية ويبكي بحرقة. اقتربت منه وسألته :

- لماذا تبكي؟

قال دون أن ينظر إلي :

- كانت تحمل همّي، ولم ترفع صوتها عليّ.
- من هي يا عم؟
- أم أولادي؟
- اين ذهبت؟
- سافرتْ .. سافرتْ.. سافرتْ..

وتهدّج صوت الرجل إلى درجة الاختناق، قلت له:

- إلى أين؟

- إلى ربها. إلى الجنة.. أريد أن أسافر إليها...

اختفى الرجل، ووجدتني على قنطرة في قريتنا، وأمامي يمضي زوجان شابان بينهما طفل جميل، طال عنقه أمتارا، وكان يضع يديه على كتفي أبويه. اليمنى على أمه، واليسرى على أبيه، ورأيتهم يتجهون نحو بيتنا القديم.

الخطيب

كان يرتدي عمامة وقميصا وبنطالا، وصوته يزلزل الأسماع والأعماق وهو يهتف "يا آلله!". سألت جاري مع اني أعلم أن ذلك مكروه في أثناء خطبة الجمعة:

- ماذا يقول هذا الرجل؟
- ألم تسمع ما يقول؟
- لا أفهم ما يقول..
- ولا أنا..
- أخطاؤه اللغوية كثيرة.
- وفي الأيات القرآنية أكثر.
- إنه مولع برفع الكلمات جميعا. يرفع المنصوب والمجرور والمجزوم والمبني و...

كانت الصلاة تقام وحديثي مع جاري لم ينته. ولحسن الحظ كان من يؤم المصلين رجل طيب، حافظ لكتاب الله، يرتدي جلبابا بلديا وطاقية بيضاء. لم يخطئ ولم يلحن، فرأيت نفسي أجلس بجواره وأسأله :

- لماذا أيها الشيخ الطيب لم تصعد المنبر وتخطب بدلا من هذا.. وأشرت إلى الخطيب.

نظر الرجل يمينا وشمالا، وهمس في أذني بكلمة واحدة...

شاهدت الشيخ الغزالي يضحك، ويقول لي:

- تعال لتشرب شايا بالنعناع في بيتي المتواضع..

واصطحبني الشيخ ومضينا على الأقدام حتى وصلنا إلى مشارف قريته نكلا العنب.. فتركني وذهب دون أن اودعه...!

مريم

سمراء جميلة، لكنها مشاغبة، أكملت عامين ومع ذلك فإنها لا تحسن النطق، ولا تكمل جملة سليمة، وجاءت في المنام تشاغبني:

- جدو..!
- نعم يا أمي..
- جدو..!
- أنت روحي..
- مم.. بو..
- حاضر يا أمي..

أحضرت لها الكعكة التي تحبها والماء كي تشرب.. ورحت اطعمها وأسقيها.. في عينيها رأيت صورة ابي، وفي ملامحها تاريخ طويل لطفولتي عشته منذ زمن بعيد.. فجأة تركتني، وهي تهتف:

- ماما .. العيال..

جاءني صوت بعيد يشدو بموال حزين مما كنت أسمعه ليلا من صيادي النهر، حاولت الإصغاء جيدا لأتبين ما اسمعه، ولكني أخفقت.. لمحت على البعد امرأة عجوزا جعلتني أصيح:

- أمي ..أمي..

- مالك يا بني؟

واقبلت تجري نحوي، وتأخذني في أحضانها وانا في رعب كبير، كانت تهدئ من روعي، وتسألني عن المرأة:

- تجلس هناك أمام الدار المجاورة. عيناها تبرقان وتخرج منهما ألسنة النار!

- لا تخف يا بني ..

ربّتت ظهري، وقالت:

- إنها امرأة طيبة وتحبك..

دفنت رأسي في صدرها وأنا أنهنه، ورحت أتناول شيئا قد أعطتني إياه لآكله..

جاءت مريم ، وقفت على حجري ، وأخذت تعبث في أذنيّ، وتلعب بأنفي، وتتحسّس وجهي وحاجبي ،وتطلب مني أن ألعب معها الاستغماية، وأغني "فتّحي يا وردة"، وانا منهك مرهق، أبحث عن جرعة ماء أطفئ بها عطشي، وأشعر أني ما زلت طفلا في حضن أمي يخاف من المرأة العجوز في الدار المجاورة!

المحمول

كثرت في الآونة الأخيرة أحلامي التي تعيدني إلى ما قبل خمسين عاما، كنت فيها مجندا بالقوات المسلحة. كانت فترة صعبة للغاية، خاصة بعد هزيمة البلاد والعباد هزيمة ساحقة غير مسبوقة أمام عدوّ كنا نهون من قيمته، ونرى ان مواجهته أمر سهل وبسيط، وسنحرّر فلسطين المحتلة من قبضته، فإذا به يحتل أضعاف فلسطين، ويستولي على مساحات لم يكن يحلم بالحصول عليها من بينها المقدسات الغالية، ناهيك عن الشهداء الذين ذهبوا مجانا وبلا ثمن، ومعهم أسلحة حديثة لم تستخدم أبداً.

قلت في نفسي حين رأيتني في البدلة العسكرية: آن لي أن أرى أمي التي غبت عنها طويلا، وسوف أحصل على تصريح الإجازة اليوم، وأستغرق النهار بطوله مسافرا حتى أصل قريتنا في المساء!

لا أدري كيف خرجت من المعسكر ومشيت بجوار سور منخفض من الرخام. الغريب أنني كلما قطعت مسافة بسيطة وجدت هاتفا محمولا من النوع الذي يستخدمه الشباب، ويطالعون عليه صفحات المواقع والفيسبوك والتويتر وغيرها. تجمع في يدي ثلاثة أو أربعة هواتف،

فقلت بمجرد وصولي سأفتح كل هاتف وأتعرف على صاحبه وأرسله إليه..

قابلتني على مدخل القرية حفيدتي، فقالت لي:

- يا جدو.. أين العصا؟ هل نسيتها في المسجد؟

ضحكت وقلت لها:

- لقد تركتها في المعسكر مع البندقية!

لم تفهم ما قلت.. وبدت سحابة من الكدر على وجهها، وفوجئت بمن يهزني، ويقول لي:

- قم يا جدي؛ لتلحق صلاة العصر!

تشهدت، وقبلتها على جبينها.

الحادث

رأيته بملابس الإحرام. قابلني في الحلم على باب من أبواب الكعبة. قال لي:

- صعدت سيارة النقل الضخمة فوق سيارتي. لم أدر بنفسي. عرفت بعد الدفن أن بناتي جميعا وزوجتي وأنا تم سحقنا والتصقت أشلاؤنا بالأرض. ممرضة مصرية عثرت في ثياب إحدى البنات على بطاقة شخصية بها بعض البيانات، فأخبرت بعض الأقارب. وانتشر الخبر..

أبديت دهشة وذهولا، وتأثرت لكلامه الذي تدفق في سرعة لم أعهدها فيه. قلت له:

- بالأمس أحضروا أربعة قراء من الإذاعة والتلفزيون. وهبّ أهل القرية يتدافعون لملء السرادق الضخم وتقديم العزاء!

ابتسم، وقال في شيء من الأسى:

- إنهم يحاولون نسيان ما يعيشونه من متاعب!

- أية متاعب تقصد؟

قال بغير مبالاة.

- المتاعب كثيرة. الغلاء. والدروس الخصوصية، وأسعار الكهرباء والمياه والغاز...

توقف عن الكلام، وابتسم مودعا و قال:

- أتركك لأكمل الطواف، أريد أن أنتهي لأعود إلى البقيع فالأولاد هناك ينتظرونني!

دهشت، ولكنه اختفى، ورأيتني أقف أمام بيته المجاور لبيتي بالقرية، أنتظر الولد الوحيد الذي نجا من الحادث. ولكنه لم يأت. جاء أحد أقاربه يهمس في أذني:

- لقد أرسله قبل الحادث بيومين إلى مصر ليحجز لدى مدرس الإنجليزي، فهو في الثانوية العامة.

رحت أسأله عن عمره والمدرسة التي يدرس بها، ولكن أذان الفجر أيقظني، فترحمت على الأموات وعلى الأحياء.

العقيقة

دارنا القديمة أو دارنا البحرية كما نطلق عليها، ولدت في حجراتها الضيقة، وجاء حلاق الصحة في القرية ليقوم بعملية الختان. لا أذكرها بالطبع لأني كنت صغيرا لا يدرك. أمي حدثتني عنها كثيرا، وعن الأقارب والجيران الذين حضروها، وتغدوا عندنا بهذه المناسبة. لم تكن كلمة العقيقة شائعة يومئذ، ولكن الشائع كان الاحتفال بالسبوع والختان بحضور قراء القرآن الكريم والمنشدين.

ألحت عليّ ذكريات الدار القديمة في حلم الظهيرة، وجدتني تائها لا أعرف هل أنا في الدار القديمة أو الجديدة؟ هل هذه غرفتي؟ وهل هذا سريري النحاسي أو سريري الخشبي المزخرف؟

انتقلت فجأة إلى حقول خضراء شاسعة، كانت نباتات الأرز تمتد في كل الاتجاهات. رحت أبحث عن أرضنا في هذا الفضاء المتشابه. كانت الساقية على رأس الأرض وبجوارها شجرة التوت الأسود التي كثيرا ما تسلقناها أنا أطفال الحارة ونحن صغار، وأكلنا ثمرها الحلو، وحملنا بعضا منه إلى أهل الدار.

لم أتعرف على أرضنا أبدا، ولم أجد الساقية ولا الشجرة،

ولكني وجدت طفلا صغيرا لم يبلغ السنة بعد. كان صوته اجش لا يتفق مع طفولته. بدا الطفل شرسا على غير عادة الأطفال في سنه.

سالت أباه الذي كان يرافقه:

- هل أدخلته الحضانة؟

نظر إليّ بوجه جامد دون ان يحرك شفتيه بكلمة. قلت له:

- متى يذهب إلى المدرسة؟

تحرك بطفله وسط الحقول، وهو يقول:

- إني أدعوك إلى العقيقة ظهر الغد. لا تتأخر!

مضى حتى غاب عن عيني، ووجدتني أحاول التعرف على سريري. هل أنا في بيتنا القديم أو في بيتنا الجديد؟ أحسست بالإجهاد.. ورحت ابحث عن جرعة ماء. لا أحد يغيثني، ولكن أذان العصر أيقظني . حمدت الله وتشهّدت، وقمت للوضوء.

العائد

كان يختال في ثوبه الأبيض البراق. يسمونه هناك الدشداشة. بالطبع لم يكن يرتدي عقالا أو غترة. كان في كل مرة يعود فيها من الغربة لقضاء الإجازة، يسعى لمقابلتي، والسلام علي، ولكنه في السنوات الأخيرة يمر بعيدا عن المكان الذي أجلس فيه. يحاول أن يتجنبني. قلت في نفسي: "لعلي أسأت إليه دون أن أقصد". رأيته في الحلم ينغض رأسه، ويدخل محلا كبيرا ويعامل البائع بصلف وغرور، كان البائع يحضر له ما يريد على مضض ويتذرع بالصبر.

ذهب إلى مكان الدفع فوجدته يخرج رزمة ضخمة من العملة الأجنبية، ويقول للمحاسب:

- بالأجنبي أو المصري؟

بان الذهول على وجه الرجل، وسأله :

- ماذا تقصد؟

- يعني تحاسبني بالعملة الأجنبية أو المصرية؟

استعاد المحاسب طبيعته :

- نحن هنا نتعامل بالعملة الوطنية.

بوغتُ بشخص يمسكه من رقبته، ويطالبه بدين عليه منذ زمان بعيد. حاولت التدخل لفض الاشتباك، فقال الشخص المهاجم:

- ألا يذكر أيام كان أهل الخير يعطفون عليه، وعلى أهله؟

أخرج صاحبنا رزمة أخرى من العملة الأجنبية ، وقال له :

- خذ ما تشاء وأغلق فمك.

فجأة انقض شخص كان يرقب المنظر، وخطف الرزمة، وأطلق ساقيه للريح.

تلفت يمينا وشمالا لم أجد أحدا حولي، ورأيت الثوب الأبيض البراق يمضي في الهواء بلا رأس ولا قدمين.

المقال

نسيت أن المجلة أغلقت أبوابها منذ عقود بعيدة وفقا لخطة تجفيف المنابع الشهيرة، كنت أعمل فيها وأنا مجند بالجيش عقب النكسة. جاء مدير التحرير يعرض على تجربة العدد الجديد. فرحت به، وتصفحته بتأنٍ. الافتتاحية، الأبواب الثابتة، المقالات المتنوعة. مقالي الرئيس الذي يحتل صفحتي الوسط (الدبل) ويكون عادة عنوان الغلاف.

فجأة محيت الصفحات أمام عيني إلا من أرقام الصفحات. سألت مدير التحرير:

- أين ذهبت مقالاتي؟ لقد رأيتها قبل قليل!

نظر إلى ولم يتكلم..

- هل حذفها رئيس التحرير؟

ظل صامتا..

- ماذا قال الرقيب؟

أخيرا نطق:

- قال الرقيب يكفي الغلاف، وتبقى الصفحات بيضاء.

وجدتني عائدا إلى بلدتي بالقطار البطيء المزدحم، كانت أمنيتي أن أنام وأستريح قليلا على الكرسي فغفوت، ولكن

بائع صحف ومجلات فنية مرتجعة أيقظني:

- بشلن فقط يا دفعة!

وألقى مجلة ملونة على حجري. استيقظت على غلاف المجلة الذي يحمل صورة كبيرة لإحداهن. فتحتها فوجدت مقالي الذي محاه الرقيب مزينا بصورتي الباسمة، واسمي مكتوبا بحروف سوداء بارزة!

المذيعة

على غير العادة رأيتها تجلس أمام مذيعة أخرى تستجوبها. كانت غاية في الأناقة وتمام الزينة. شعرها الأسود الفاحم وعاء لوجهها الذي يشبه البدر في تمامه. المذيعة السائلة تستدرجها من الكلام عن الحياة الخاصة والحب والزواج والطلاق، إلى الحديث عن الثقافة والسياسة والاقتصاد.

كشرت الجميلة عن أنيابها وراحت تلعن وتسب نفرا من السياسيين الذين خرجوا من الحكم. تحدثت بلهجة الخبير الواثق.

قالت المذيعة الأخرى في خبث:

- هل كنت تقرئين في السياسة عندما كنت ممثلة؟

لوت بوزها، وهتفت بثقة:

- طبعا . أنا مدمنة للسياسة مذ تخرجت!

رسمت الخبيثة ابتسامة صفراء على وجهها:

- يعني منذ الإعدادية؟

أدارت الجميلة رأسها مع الكرسي، فرأى المشاهدون ظلا باهتا غير واضح الملامح.

اختفى صوت التلفزيون. واختفت الجميلة تماما. وبقي ذراع الخبيثة وجزءا من رأسها الخلفي فيه إحدى أذنيها في شكل كبير ملأ الشاشة..

وظل وشيش الشاشة يطن في أذني حتى أيقظني الفجر!

الجريدة

لا أدري كيف مضيت أبحث عن بائعة الجرائد التي تعودت أن أشتري منها الجريدة اليومية مذ كنت طالبا في المرحلة الإعدادية. مشيت من شارع إلى شارع، المسافات تبعد وتستطيل، حتى تعبت، فوجدت مصطبة بجوار حائط عال، لا أذكر هل كان حائط مسجد أو حائط قصر من القصور القديمة. كانت المصطبة في الظل، والهواء حولها رطب منعش، وجدتني أتمدد عليها وأغفو. صحوت من غفوتي فوجدت الشمس قد مالت إلى الغروب، وقلت في نفسي:

"لقد تأخرت عن العودة البيت. أسرتي سوف تشعر بالقلق، وتضطر للبحث عني في كل مكان".

تذكرت أني لم أحضر الجريدة ولم أعثر على مكان البائعة، اتجهت إلى معهدي القديم، وهناك فوجئت بالبائعة تفرش الصحف والمجلات والكتب، وتقول لي:

- لقد غبت كثيرا. انتظرتك طويلا. كدت أشطب وأحمل الفرش وأمضي.

لم أرد عليها، ولكني رحت أتأمل الكتب المصفوفة. خرج العقاد من بينها، وسمعته كأنه يخاطب المستمعين في

حديثه الإذاعي المسائي الشهير، وهو يبدأ بقوله: "أيها السادة والسيدات" بصوته الأجش المميز، دون أن يبدأ "بالسيدات والسادة".

قلت له :

- هل ستتحدث عن جائزة نوبل ؟
- لا. بل سأتحدث عن جائزة روميل؟

قلت في دهشة:

- هل هناك جائزة روميل؟ إنه قائد مهزوم !

قال بهدوء على غير عادته:

- هل هناك قائد منتصر في زماننا؟

قلت:

- كثيرون في الشرق والغرب وبغداد ودمشق..

قال:

- يا مولانا.. لا يوجد منتصر. كلهم مهزوم ومقتول.

حيرني كلامه الذي تحول إلى لغز لم أفهمه..

كانت بائعة الجرائد تلملم بضاعتها وتربطها بالحبال، وتقول لي :

- مع السلامة يا استاذ!
- لكني لم آخذ الجريدة.
- غدا إن شاء الله.

تلفت فلم أر حولي أحدا، كوفية العقاد وحدها كانت ترفرف في الفضاء!

المباراة

زحام شديد يملأ الشارع. في المكان الذي أسيرت فيه مكتبة كثيرا ما اشتريت منها الكراسات وأقلام الحبر وورق الزبدة لتجليد الكتب الدراسية. كانت الزحمة تجعل صاحب المكتبة عم عبد السلام يتكلم دائما بصوت خافت، ويحرص على تلبية الطلبات للتلاميذ الصغار والكبار على السواء، دون أن يستجيب لاستفزاز بعض الأولاد.

رأيت الشارع يتسع، حتى صار ملعبا كبيرا مفروشا بالنجيل الأخضر، وتجرى فيه مباراة حامية بين فريقين مشهورين، ولكن الناس يمضون في الشارع ولا يلتفتون إلى المباراة أو اللاعبين. قلت لنفسي: "أذهب إلى الناحية الأخرى ففيها شارع أكثر هدوءا، ولا يسير فيه ناس كثيرون".

مضيت إلى الشارع الآخر ففوجئت بمباراة أخرى أكثر ضجيجا، وتتعالى صيحات اللاعبين، ولكنها بدون جمهور، وبينما أتأمل الملعب الذي يجري فوقه اللاعبون باغتتني كرة صاروخية عنيفة كادت تطيح براسي. ولكني رأيت مسمارا طويلا قد سحقته الكرة وجعلته قطعة حديد

مسطحة..

وجدتني في منتصف الملعب، وأحد الفريقين ثائر على الحكم! تنهال الاتهامات على رأسه بأنه منحاز، ويتغاضى عمدا عن أخطاء الفريق الآخر:

- إنه حكم مرتش!

كان صاحب الاتهام يرفع سبابته ويؤكد ما يقول، ويسألني أن أؤيد اتهامه.

- لم يعد هناك ضمير. لا قانون ولا أخلاق..

هتف آخر، وأنا حائر لا أعرف كيف أرد أو أتكلم.

انقذني الكابتن لطيف حيث أمسك الميكروفون وهو يجلس تحت مظلة مهترئة على طاولة مستديرة، وبصوته المألوف يعلن:

- والآن يسجل رفعت الفناجيلي هدف الفوز، مبروك للفريق الفائز هارد لك للفريق المكافح .. سيداتي سادتي: نحييكم من استاد مدينة أسوان. ونلتقي بكم بعد قليل من استاد مدينة المنصورة، وكل عام وأنتم بخير.

في أقل من الثانية كان الملعب مكتظا بجمهور لم أره من قبل. تعالى الصياح والصراخ، والتدافع، وفجأة وقف أمامي عم عبد السلام صاحب المكتبة يسلمني كراسة رسم وعلبة الوان!

الرخصة

وجدته جالسا على دكة خشبية مهترئة بإدارة المرور ينتظر. ابتسمت وصافحته، وسألته:

- ما الذي جاء بك إلى هنا وأنت لا تعرف قيادة السيارات؟

رنَت ضحكته المعهودة:

- لقد قررت ان اخوض تجربة جديدة لعلها تعطيني فرصة كتابة عمل روائي أو قصصي جديد.

همست في أذنه في شبه تحذير:

- ولكن القوم لا يسمحون لمثلك بامتلاك رخصة قيادة؟

سألني في شبه استغراب:

- لماذا؟ أنا أدفع الرسوم وزيادة !

قلت له:

- اسمح لي فإن سمعك ضعيف وكذلك بصرك. ثم إن صحتك واهنة، وقد يأتي الكشف الطبي بنتيجة "غير لائق طبيا"

قال بهدوء :

- قد يلتُمسون لي العذر، فأنا نجيب محفوظ. وهم

يجاملونني على كل حال.

قلت في انفعال مكتوم:

- إنهم يستكثرون على ابنتك أن تبني مسجدا باسمك؟ ويزعمون أنها استسلمت للإرهابيين!

بهدوء وهو يؤكد على الكلمات والحروف:

- الإسلام ليس إرهابا. وأرجو أن يتقبلني ربي مسلما تائبا صادق التوبة، مجتهدا فيما أكتب غايتي الخير لبلدي وكل الناس.. ثم التفت إلى مندهشا:

- ما الذي جاء بك إلى هنا ، وأنت تتوكأ عل عكاز؟

- جئت لأجدد رخصة القيادة.

- ولكنك لا تستطيع القيادة؟

- تجديد الرخصة يمنحني الأمل في القدرة على القيادة يوما ما.

كان نجيب يخرج من مظروف أصفر كبير روايته "رحلة ابن فطومة" ويكتب عليها إهداء جميلاً، ويقول لي متأسفا:

- لقد نسيت أن أشكرك على دراستك الجميلة حول هذه الرواية فاقبل الهدية مع الشكر.

سمعت صوت الموظف في الشبك ينادي في خشونة:

- نجيب محفوظ إبراهيم.

كان الموظف يطلبه ليسلمه الرخصة، ولكني لم أجد الأستاذ نجيب، ووجدت رخصتي في يدي وفيها "يعاد الكشف الطبي نظرا لتجاوزه السبعين".

القلادة

لم أكن أتوقع رؤيته ثانية.. كنت أجلس في مكتب الأديب ثروت أباظة في الأهرام أراجع مقالته الجديدة التي ستنشر غدا في "الأهرام". وإذا به في صورة شبابه يدخل، ويسلم ويقف إلى جانب المكتب رافضا الجلوس مما اضطر ثروت إلى الوقوف احتراما له.

- أرأيت؟ حتى بعد موتي لا يتركونني في حالي!
- ماذا جرى يا أستاذنا؟
- ألم تسمع ما قيل في الفضائيات والإذاعات ونُشر في الصحف والمجلات؟

حاول ثروت أن يتجاهل الأمر ولكن الأستاذ كان غاضبا وحادا على غير عادته، لم تكن مسألة القلادة المغشوشة حدثا عاديا، ولكنها أزعجت كثيرين، وأثارت موجة من الغضب والسخط في أرجاء البلاد. وأفاد منها المتاجرون باسمه. كيف يزيفون قلادة النيل الممنوحة لنجيب محفوظ وسلمها له رئيس مخلوع؟

- تعلم يا ثروت أني لا أحب أن تتحدث أجهزة الإعلام عن حياتي الخاصة. إنها ملكي وملك أسرتي ولا يجوز لأحد اقتحامها بهذا الشكل.

- إنك شخصية عامة يا أستاذنا. ما يمسّك يطالُ الناس جميعا.

- تعلم يا ثروت أني عرفت أن القلادة مزيفة في حينه. بدلا من أن تكون ذهبا خالصا جعلوها من الفضة وطلوها ذهبا. زوجتي تأكدت من الأمر في اليوم التالي مباشرة. ذهبت إلى صائغ موثوق نعرفه فأكد لها الأمر وطلبتُ منها ومن البنتين عدم الكلام في الموضوع.

- ولكن الموضوع لا يتعلق بك وحدك. هناك مشاهير آخرون ورؤساء دول أجنبية منحوا القلادة، والأمر يمس سمعة الوطن كله لو كانت كلها مزيفة. لا بد من معرفة من هو المستفيد من التزييف. كل قلادة يبلغ ثمنها نصف مليون جنيه تدخل جيب المزيف. لا بد من معرفته.

- أنسيت أنني كتبت في روايتي الشهيرة "آفة جارتنا النسيان"؟

التفت إلى باب المكتب رأيت الأستاذ يجلس على كرسي متحرك والحاج صبري يدفعه إلى الخارج. خيم الوجوم على وجه ثروت، وقلت له:

- لنؤجل مراجعة الموضوع فهو يحتاج إلى تغيير كامل، ليكون: من سرق القلادة؟

نظر إلي ولم يتكلم، ووجدتني أجلس على عتبة المسجد، أنتظر فتح الباب لصلاة الفجر!

الكهرباء

بعد أن تسلمت بدلة الزيّ الموحد من الموظف المختص؛ ذهبت لأرتديه بعد أن بيّن لي طبيعة عملي في شركة الكهرباء.

في مكتب متواضع سألني زميلي الذي يجلس في مواجهتي:

- كيف تترك عملك في الجامعة أستاذا كبيرا ينظر إليه الناس بالإجلال والاحترام، وتأتي إلى هذه الشركة، فلا يقدر أحد علمك، ولا معرفتك. وتجلس على مكتب تؤدي عملا كتابيا روتينيا يمكن أن ينهض به حامل دبلوم متوسط؟

نظرت إليه ساهما ولم أحاول الإجابة عليه، فاستأنف تعجبه:

- هناك لا ترتبط بدفتر حضور وانصراف، ولا درجة مالية، ولا تتلقى أوامر من رئيس يفرض عليك ما يراه.. أنت هناك تقرأ وتبحث وتلتزم بكلمة وتذهب إلى العمل عندما يقتضي الأمر ولو في جوف الليل أو يوم الإجازة الرسمية.. ما الذي قذف بك إلى هنا..؟

ولما لاحظ أني لا أرد، قال بيأس:

- يبدو أن وراءك حكاية كبيرة. ودفن رأسه في

دفتر أمامه، وراح ينقل منه ويكتب، وانا تائه لا أعرف ما الذي يجري لي ومن حولي.. فجأة افلت مني سؤال لزميلي:

- كم يتقاضى العامل في الشركة؟

نظر إلى مندهشا:

- ألم تكن تعرف قبل تعيينك؟
- كلا . لم أكن أعرف!
- إذا لماذا طلبت التعيين في شركتنا؟
- مرتبي هناك لا يكفيني. وأنا أستاذ لا أبيع الكتب، ولا أعمل عملا إضافيا في المؤسسات الحكومية.

ران الصمت على الحجرة. قطعه صوت موظف من مكتب آخر يعلن مبتهجا :

- علاوة ضخمة لجميع العاملين أول الشهر!

خرج الموظفون أمام مكاتبهم لاستطلاع الخبر فاغرين أفواههم. كانت هذه علاوة جديدة بعد شهور قليلة. عبروا عن فرحهم بعبارات شتى.

قال أحدهم:

- الموظف الجديد قدمه مبروك. عاش الموظف الجديد!

انبعث هتاف الموظفين:

"عاش الموظف الجديد – عاش الموظف الجديد.."

انهمكت في مناقشة رسالة الدكتوراه. الطالب الذي أناقشه لا يحسن قراءة جملة صحيحة. مع ذلك سيحصل على

الدرجة، وتزغرد له أمه وزوجه وقريباته. ويُعيّن زميلا في القسم، ويقاتل من أجل ساعات أكثر؛ ليبيع كتبا أكثر...غامت عيناي، وركبني الدوار، ورحت أبحث عن جرعة ماء. افقت لأجد الدنيا ساكنة، ولا أحد حولي!

العيدية

حين رأيته تهلل وجهي، فقد اقترن مجيئه من البلد التي يعمل فيها بالأعياد والمواسم، وكان ينفحني في كل عيد ورقة مالية جديدة من ذات الخمسة قروش تبدو ألوانها أقرب إلى الاحمر والبني عليها صورة نفرتيتي الخالدة، أعتز بها، وأحفظها في مكان أمين، وأباهي بها الأطفال الذين يزوروننا في المناسبات. أقول لهم: لقد أعطاني خالي ربع ريال كاملا. أما أنتم فأقصى ما تحصلون عليه تعريفة أو قرش صاغ.

كان خالي يرحمه الله لا يكتفي بالورقة المالية، ولكنه كان يحمل معه جريدة الجمهورية في عز شبابها لأطالعها معه، وأقرأ بعض القصص المضحكة التي كان يكتبها إبراهيم الورداني رحمه الله. أذكر منها قصة طريفة اسمها الخروف عن أضحية عيد الأضحى. وأقلب معه صفحات الجريدة فينبهني إلى كوبونات كتاب الجمهورية التي تتيح لي شراء نسخ مخفضة من الكتب التراثية الشهيرة..

غاب عني منذ رحيله قبل أربعين عاما أو يزيد، وحين رأيته الليلة غمرني الفرح، وتعلقت بعنقه كما كنت أفعل

وأنا طفل، وسألته بشوق:

- أين كنت يا خالي؟ لماذا غبت عني سنوات طويلة؟

نظر إلي باسما، ولم يتكلم.

- لم تسأل عني ولا عن أمي التي ماتت بعدك بخمسة عشر عاما.

رفع يده بورقة مالية قديمة مكرمشة وتبدو ملوثة من كثرة الاستخدام، وضعها في جيبي واكتشفت أنها من فئة المائة جنيه.

قلت له وأنا أحاول إعادتها إليه:

- لست في حاجة إليها. أنا موظف كبير، ومعي مرتبي.

ضحك وقال لأول مرة:

- الطماطم بعشرة جنيهات!

اختفى من أمامي، ورأيت طيف جدتي يسجد على السجادة، وسمعتها تدعو له بطول العمر!

القاضي

كان منحنيا ويدب على عكاز. سنوات طويلة مرّت لم نتقابل. قال لي: لقد انتظرتك عندما رقيت قاضيا ولم تات. وظننتك ستأتي بعد خروجي على التقاعد ولم تأت. زوجت بناتي ودعوتك ولم تأت. حين شيّعوا جنازتي لم تشارك ولم تأت.

- هأنذا قد أتيت. وتقابلنا. ألست بخير؟
- أنا على الأعراف!
- هل ظلمت أحدا يا جناب القاضي؟
- لا يخلو الأمر من بعض الميل!
- ولكن الخالق أمر بالعدل؟
- إغراء الدنيا يبدو لذيذا في بعض الأحيان.
- القاضي سيف قاطع.
- بلى، ولكن النفس البشرية حائرة بين الرغبة والزهد.

قلت له بتلقائية:

- قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها.

نظر إلى بعينين كليلتين حزينتين، وقال:

- جمعت أموالا، وبنيت قصورا، ولكني فقدت نعمة

البيت السعيد والولد الرشيد!

ثم رفع يده ملوحا وهو يغادرني طائرا على جناح الريح، وأنا أحوقل وأتمتم بذكر الله الواحد الأحد العدل الصمد..

الذكر

" ليس هذا بيتنا! ".

قلت ذلك في نفسي حين دخلت من باب يشبه باب بيتنا. لم اجد ابي ولا امي، ولا إخوتي! بحثت عنهم في ارجاء الغرف المتراصة، لم أجد أحدا! اصابني الغم! تأهبت لمغادرة البيت، وقلت: "أسأل الناس، أين ذهب بيتنا الذي أعرفه؟".

عند خروجي سمعت صوت امرأة تنهر زوجها بحدة، وترفع صوتها في نكير قبيح، وتردح له قائلة:

- لستَ رجلا. يا معرّة الرجال. يا خيبتك القوية!

لم أسمع صوتا يرد عليها. ظننت المرأة تتكلم وحدها عن شخص غائب. ذهبت ناحية الغرفة اعتقادا أن المرأة في محنة وتحتاج إلى مساعدة. تصاعد صوت المرأة وازداد شراسة. فتحت الباب فاستمرت المرأة في النكير. نظرت إلى ركن الغرفة فوجئت بعجوز مسكين يرتعد فرقا من المرأة. رفعته من الأرض فوجدته ينهنه. حاولت تهدئته، ومضيت به خارجا. أجلسته في الصالة ورحت أسرّي عنه. انطلق الرجل يدعو عليها، ويلعن اليوم الذي عرفها فيه.

قلت له :

- إنها أم أولادك، وعشرة سنوات طويلة.

قال وهو ينشج :

- ليتها ما كانت!

- هل تملك عليك ما يحرجك؟

- كلا! إنها لا تملك إلا لسانا سليطا، وفشلا ذريعا!

- لماذا تنهار أمامها هكذا؟

- لقد أعطيتها كل شيء، فتحولت إلى دكر البيت!

رأيت وجه الرجل يتغير ويتحول إلى ألوان متعددة متتابعة. طلبت منه أن يصالحها وينهي الأمر، ولكنه اعرض عني واختفى!

عند خروجي من البيت رأيت أبي يضحك، ويقول لي:

- سأزوجك قريبا إن شاء الله!

قلت له:

- لن أتزوج دكرا.

وتركني ومضى إلى حيث لا اعرف!

الوفد

ما هذا الحشد؟ ومن أين جاءوا؟

أجانب من كل لون. أفارقة، وخواجات، ويابانيون. معهم حافلة ضخمة جاءت بهم إلى قريتنا الوادعة. وحول الحافلة سيارات متنوعة نزل منها خلق كثير. ضابط تلمع النجيمات الصفراء على كتفيه ويمشي بظهره، ليصدر التعليمات والتوجيهات إلى من يقومون بحماية الوفد الأجنبي. شيخ الخفراء يجري يمينا ويسارا، موظفو مجلس القرية عن آخرهم جاءوا ليشاركوا الوفد زيارته. فرصة ليغيروا طبيعة برنامجهم اليومي ويبتعدوا قليلا عن جلوسهم الممل على المكاتب بلا عمل. راح بعضهم يحتضن المخبرين الذين جاءوا مع الضابط، ويلقب بعضهم بعضا بلقب الباشا.. خرج الناس في الشرفات ونزلوا إلى الشوارع ليتفرجوا على الوفد، ويشاهدوا نساءه اللاتي يلتقطن الصور، كان هناك ما يشبه الضجيج لم أفهم دلالته.

سألت نفسي :

- "لماذا جاء هذا الوفد وأهل السلطة معه؟".

لم أستطع السير مع الناس. سمعت أحدهم يقول: قريتنا نموذجية. نظرت عند قدمي فوجدت حفرة كبيرة تتخطاها السيارات بأعجوبة، وحولها حفر أخرى مستطيلة وعرضية، وتمتد إلى آخر الشارع.. قلت: كيف يسير هؤلاء الضيوف في تلك الحفر النموذجية؟

اختفى الناس والوفد فجأة .سألت:

- أين ذهبوا؟

سمعت غمغمة غير واضحة. تردد في سمعي كلام شخص لا أراه:

- لقد استضافوهم ليأكلوا فطيرا مشلتتا مصنوعا من الدقيق المستورد!

النشرة

رأيتها مجددا على الشاشة. منذ زمان لم أرها. مع أني لا أتابع التلفزيون كثيرا فلم أقرأ عنها خبرا أو ألمح إشارة. ترى أين اختفت أو أين كانت؟ معروف أنها مقربة من المسئولين، وأخبارها تملأ الصحف، ويتحدث عنها الجمهور كثيرا..

لست معنيا بأمرها، ولكنها خرجت من الشاشة تريد مصافحتي. رأيت وجهها قد اسودَّ مثل ثوبها، والغضون تملؤه. لم تفلح عمليات التجميل في ستر تغيُّرات الزمان، شعرها مصبوغ، ولكن شعيرات بيضاء أطلت متمردة من وسط الصبغة ولم تتأثر بها. ربما لطبيعتها الدهنية. قالت لي:

- لماذا تنتقدني في مقالاتك؟

قلت لها:

- لم تعد لي مقالات، ولا تقبل جريدة أو مجلة نشر ما أكتبه!

- لكنك من زمان تظن بي السوء.

- أستغفر الله! كنت مشفقا على زوجك الطيب، وأولادك الذين يحتاجون إلى رعاية!

- ما فعلته لا يخالف الشرع ولا الدين.

- تتركين الرجل والأولاد، وتتزوجين شخصا في عمر أبنائك؟

عادت إلى الشاشة وراحت تقرأ نشرة الأخبار، وتعدّد الإنجازات، وتهجو المعارضين الأشرار، وتتحدث عن القنبلة الهيدروجينية التي توصلت إليها كوريا الشمالية، وقصف قوات التحالف لتجمعات الإرهابيين وقتل مائة مدني في دير الزور...

أغلقتُ التلفزيون، فوجدتها واقفة أمامي، تقول في حدّة:

- لماذا تحاسبني على كلام الناس؟
- من أنا يا سيدتي لأحاسب أو أعاقب؟
- عيناك تقولان ذلك.
- لقد هرمت، ولم أعد أرى الأشياء بوضوح .فهل بقي في عيني شيء؟
- أنا بريئة من كل ما يقولون!
- إذا توجهي إلى الله بالدعاء من أجل الستر.
- هل يستجيب لي؟
- في القرآن الكريم: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب. أجيب دعوة الداعي إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون.

انهمرت الدموع من عينيها كالمطر. بحثت عن منديل ورقي لتمسح ما خلفه البكاء فلم أجد.

تركتني ودخلت شاشة التلفزيون المظلمة، وتوكأت على عصاي، وخرجت من البيت فوجدت شبحها يمضي أمامي، وقد ارتدت ثوبا ريفيا فوقه طرحة سوداء!

المؤتمر

في الطرقات والقاعات حركة لا تهدأ. رجال ونساء من جنسيات مختلفة يشاركون بأبحاثهم ودراساتهم في موضوع المؤتمر. نسيت الموضوع، ولكني لم أنس ما قاله لي أحدهم، ويبدو من سحنته انه آسيوي:

- أنتم العرب تحتاجون إلى العمل والكف عن الثرثرة!

ابتسمت في قهر، وقلت:

- حتى الثرثرة افتقدناها.

وجدتُ الموائد وأغطيتها، والكراسي والطقاطيق، قد انقلبت على الأرض، وأخذ الضيوف يجرون يمينا وشمالا، لم أعرف ماذا حدث، كل ما أعرفه أنني صرت أدور حول نفسي، أبحث عن شخص يجيب عن سؤالي :" ماذا حدث؟".

في الفندق كان الصمت يلفّ كل شيء، ذهبت إلى غرفتي، دق الهاتف:

- هيا إلى لقاء لجنة البيان الختامي.

جلست مع اللجنة ، وقلت لهم:

- تفضلوا اكتبوا ما تريدون.

- هل نكتب ما جرى من خلاف بين الأعضاء؟

سألتهم باستغراب:

- ما الذي جري بين الأعضاء ؟

- الا تعرف ما الذي جرى؟

قلت لهم ببساطة شديدة:

- كلا!

مصمصوا شفاههم، ونظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا!

قرأت البيان، فلم أجد فيه إشارة إلى ما جرى. كان البيان يشيد بالحفاوة الكبيرة التي استقبلت بها دولة.... الوفود المشاركة حيث اهتمت بتقديم الدعم والعون للأعضاء، وسمحت للمناقشات أن تدور في إطار من التفاهم وال......

جاء بعض الأعضاء يلهثون، وسألوا في دهشة:

- هل انتهى المؤتمر؟

ولما لم يجبهم أحد، واصلوا:

- لقد تركونا في فندق متواضع للغاية؛ لم يقدم لنا طعاما منذ وصولنا بينما حضراتكم في فندق خمس نجوم!

أمسكت بالبيان، وقدمته لهم، ورأيتني أطير في الهواء ولا أعرف هل نحن في الليل أو النهار!

المحرض

هذه المرة لن يفلت، ولن أتركه. لقد امتلأت منه. آذاني كثيرا، وحرض قريبي على حتى انقطعت صلة الرحم تماما.

قررت النزول إليه في قلب المكان الذي يقضي فيه وقته وهو طرح النهر، له عشة يجلس فيها ويأوي إليه أصدقاء السوء، وفيها ينسج خيوط مؤامراته التي لا تتوقف. ناديته بلقبه القبيح الذي أطلقه عليه الناس في حالة انتقام غير مباشر. قلت له:

- لابد من تأديبك ، وقطع دابرك من هذا المكان.

باغتته المفاجأة. ما كان ينتظرها منى. كان يظن أن صبري لن ينفد. ولكنه رأى ما لم يتوقعه. بدا عليه الاضطراب والهلع ولم يفتح فمه بكلمة.

تحول الجالسون معه إلى أرانب مذعورة هربت إلى جحور مفتوحة في العشة. ووجدتني أنظر ناحية النهر فأرى الأوزّ العراقي يطير مقتربا من الماء في تشكيلات مدهشة أنستني المهمة التي جئت من أجلها.

تحت شجرة صفاف جلست ثم نمت وصحوت وقلت في نفسي:" لأذهب إلى البيت" وحين هممت بالمشي ظهرت

أمامي الأرانب التي اختفت في جحور العشة، وكانت ترتع وتلعب وتقفز على الشاطئ دون ان تعبأ بوجودي ..

مضيت في طريقي ولكن العشة كانت تكبر وتكبر وتتضخم حتى غاب عني البيت، فسألت أحد المارة:

- اين بيتنا؟

فرد بغير مبالاة:

- لا اعرف!

وقفت أسأل المارة عن البيت ولكن أحدا لم يرد بجواب شاف...

الخطبة

منذ خمسين عاما لم أصعد المنبر. كنت اتجنّب الأمر لأسباب شتى، أُفضّل أن أكون مستمعا لمن يخطب، أحسست هذه المرة برهبة غير مسبوقة وأنا واقف بين جمهور المصلين، أقرأ الآية لأولى في سورة الكهف: "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا"، ورحت أشرح الآية وما تلاها، وأستفيض في الشرح، وفجأة ظهر امامي بصوته المميّز الرقيق، وعمامته البيضاء الساطعة وطربوشها الأحمر المزهر. كان يردد ما أقوله، ويضغط على أواخر الحروف بطريقته التي أعرفها مذ كنت طالبا أجلس أمامه في المرحلة الابتدائية.

قال لي:

- ما زلت أحفظ رقمك في كشف الفصل ١/٣ ، وأعرف أرقام بقية الطلاب.

قلت له:

- لقد منحك الله ذاكرة عجيبة فريدة. تحفظ ما تقرأ من أول مرة، وتعيد غيبا ما طالعته في الجريدة اليومية دون أن تنقص حرفا أو تزيد!

- الحمد لله الذي منحني ذاكرة فريدة.

قلت له مؤمنا على ما يقول:

- إنها منحة إلهية بلا شك.

كان يمضي أمامي متجها إلى النهر، وكنت أمضي وراء على الرصيف الحجري مثلث الأضلاع وزاويته القائمة المستندة إلى الجسر كي يحميه من قوة مياه الفيضان.

قلت له:

- لم يأت الفيضان من خمسة عقود!

نظر إلى بأسى وقال:

- لقد استولى الناس على الرصيف وبنوا عليه بيوتا خرسانية كالحة.

قلت:

- لقد استولوا على طرح النهر كله، وأقاموا عمارات شاهقة حجبت منظر الماء عن أهل القرية.

صمت، ورأيت عينية الضيقتين الخضراوين تغمضان، ورفع يده بالتحية قائلا :

- ألقاك في المعهد إن شاء الله.

مضيت وراءه محاولا اللحاق به، وسألته :

- إن كانت الحصة القادمة إملاء أو مطالعة؟

ابتسم واختفى في جوف الماء، وتنبهت إلى أنني ما زلت فوق المنبر أشرح أول سورة الكهف....

المدرس

عند بيت جدي الذي لم أذهب إليه منذ سنوات طوال، رأيته يجلس في داره التي اتسعت وامتلأت غرفها بالأطفال، كان يجلس بينهم ويظهر نصفه الأعلى وهو يقبض على عصا قصيرة، وقد انفتحت الغرف بعضها على بعض.. استغربت اكتظاظها بالأطفال، فسألته:

- من هؤلاء؟

فقال:

- إنهم تلاميذ المدرسة جاءوا لأخذ درس خصوصي!
- كل هؤلاء؟

قال بتأكيد:

- نعم. جاءوا من أجل الدرس الخصوصي.

قلت باندهاش:

- إنك لا تحسن الإملاء، وحصلت على الإعدادية بطلوع الروح، والدبلوم بالغش!
- وجدتها عملا صالحا بعد المعاش.
- كيف تُعلِّم كل هؤلاء؟

لم يعر كلامي اهتماما. ورأيت جدي الذي مات وترك أبي طفلا صغيرا يقول لي:

- اذهب إلى الكتاب واحفظ القرآن..

- لقد حفظته يا جدي منذ ستين سنة.

- قل لأحفادك: احفظوا القرآن فهو خيرهم في الدنيا والاخرة.

- ولكن يا جدي ...

لم أستطع أن أكمل كلامي، فقد مضى إلى النهر مقابل البيت، ولم أشبع من مطالعة وجهه الذي شبهوه لي بالقمر ابن أربعة عشر، ورحت أناديه ولكنه لم يرد، فعدت أمضي إلى البيت وكان المدرس الخصوصي يجلس في منتصف الطريق ومعه عصاه القصيرة...

الحطب

كم من السنوات لم نلتق؟ لا أدري تماما، ولكنها سنوات طويلة، قطعها لقائي به في حلم الليلة، حين رأيته قادما ليحضر ندوة أدبية دُعي إليها كثيرون. لم أصدق أنه هو، فقلت له على الفور:

- ياه! تحول عود الحطب إلى شجرة جميز!

يكاد الدهن يخرّ من مسام جلده. ملامح النعمة بادية عليه دون ريب. حياني باسمي مجردا كما كنا نفعل في شبابنا، ورددت التحية بالمثل..

قال لي بنبرة فخر:

- لقد أصبحت مديرا مهما في الوزارة.

قلت له بنبرة آلية:

- أتمنى أن تكون وزيرا!

قال بثقة:

- خطوة واحدة وسأحلف اليمين.

- تهنئتي مقدما.

في زمن الشباب كان ثوريا متطرفا، لم يقف عند حدود لينين وستالين، بل كان منحازا لتروتسكي مثل الحزب الصيني.. ذهبت إلى بيته ذات مرة وكان في أطراف

المدينة، لم أجد قطرة ضوء خارج المنزل المتواضع أو خارجه. ناديت مرة ومرات ، وأخيرا جاءني صوت امرأة من وراء الباب يخبرني أنه ليس موجودا!

فهمت فيما بعد أنه بعد الغروب لا يقابل أحدا، لأن الليل يرتبط بمداهمة البيت والاعتقال. وقد أخذوه مرة وليس على استعداد لتكرارها. فجأة انتقل من وظيفته المتواضعة في المدينة إلى وظيفة كبيرة في العاصمة تبدو شرفية أكثر منها عملية. عرفت أنه التحق بالحزب الحاكم، وصار من كتاب النظام المرموقين في الصحف الكبرى، وتستضيفه الشاشات الفضائية والموجات الإذاعية، وتستدعيه جهات أجنبية ليقضي أوقاتا ممتعة في رحلات طويلة ومؤتمرات متنوعة، ويحرص في كتاباته على جمع الحوادث الشاذة في تاريخ المسلمين ليحاكم بها الإسلام.

بعثت إليه رسالة أنبهه إلى أخطائه التاريخية، فهاتفني منزعجا:

- يا صديقي ، دعنا نأكل خبزا. الرعب أقوى منا.

قلت له:

- إنك تأكل جاتوه ..

وضحكنا، وسألته هل مازال يعيش في بيته القديم، فسخر مني وأخبرني أنه الآن يعيش في الكمبوند. ولأني لا أعرف ما هو الكمبوند، قلت له :

- حسنا. سأذهب إلى سيناء وأبني بيتا على طريقة المهندس صديق البيئة، وأبتعد عن الزحام.

الجميلة

هتفت بي عند مروري لصلاة العصر :

- يا عمي! لقد تعبت، وفقدت القدرة على العيش!
- لماذا يا ابنتي؟
- كلهم يكرهونني!

حاولت أن أصارحها بالحقيقة، ولكني تراجعت. طلبت منها أن تصبر، ووعدتها بحل مشكلتها.

تذكرت أن أهلها الفقراء كانوا لا يجدون قوت يومهم، وأرسل الله إليهم هذا الشخص الطيب ليتزوجها، ويغدق عليها وعليهم، وينقلهم من حال إلى حال، ولكنها قابلت المعروف بالجحود، والإحسان بالإساءة. حاول الشخص الطيب أن يعالج الأمور برفق، وأن يتحمل من أجل طفله البريء، ولكنها كانت تزداد سلاطة لسان وسوء أدب، ولأنها تفاخر بجمالها دائما وترى الأمور في صالحها دائما فقد طلبت الطلاق! وأذعن المسكين بعد قهر لإرادتها، وأخفقت بعد ذلك في أكثر من زيجة، وعادت إلى أهلها، ونفد ما لديها من خير الرجل الأول، ومع ذلك ظلت تتيه بجمالها حتى شحب الوجه، ولم يبق إلا الفقر والذبول..

في طريق عودتي من الصلاة تنفست الصعداء فقد غابت عن الطريق. واصلت طريقي متوكئا على عصاي. وجدت فلاحة بسيطة تجر ابنها وهو يبكي، وتؤنبه في قسوة حانية:

- سأجعل الشيخ يعلمك الأدب، والكف عن الشتائم لتكون رجلا صالحا..

ضحكت، وحاولت أن أتدخل لتخفف قسوتها، وأسعى للصلح بينهما، ولكني وجدت نفسي في طريق بعيد لا أحد فيه، تمرح فيه الأغنام وتلعب مع الماعز دون عدوان من أحد على الآخر. وكان تيار النيل يجري بقوة في لمعان فضي جميل.

سرديات أخرى للكاتب

١-رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية ،القاهرة، ١٩٧٤م.

٢- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال ، القاهرة، ١٩٧٦م .

٣-زمن البراءة : النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية)

٤-زمن الهزيمة : النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)

٥- زمن الغربة: النيل لا طعم له، (الجزء الثالث من السيرة الذاتية).

٦-شغفها حبا، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٤٠هـ= ٢٠١٩م.

٧-محضر غش، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة،

٨-شكوى مجهولة، (رواية). مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة،١٤٤١هـ= ٢٠٢٠م .

٩-منامات الشيخوخة، (قصص).

١٠- الرجل الأناني(رواية). مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة،١٤٤١هـ= ٢٠٢٠م.

١١- اللحية التايواني(رواية). دار النابغة، طنطا ، ٢٠٢٠م.

١٢- الشمس الحارقة (رواية).

١٣- مكر الليل والنهار (رواية).

١٤ – مالك الملك (رواية).

رأيت كأني أمضي في مدينة كبيرة أعرفها. لست متأكدا من اسمها. هل هي الإسكندرية أو المحلة الكبرى أو دمنهور. سمعتهم يقولون إنهم سيقيمون معرضا دوليا يتقاطر عليه المشاهدون من أركان الدنيا..

لفت نظري أنهم ينصبون ما يشبه اللافتة أو الإعلان أو الواجهة الضخمة التي سيكتبون عليها ترحيبا بالزائرين.

قلت في نفسي :

" أما كان الأجدى أن يوزعوا ثمن هذه الواجهة على العمال الفقراء ؟ هل لديهم فائض كبير من المال لينفقوه في هذه البهرجة ؟ ".

غادرت المكان وأنا أتحسس جيوبي وأفكر كم بقي فيها من نقود. كنت أريد أن أشتري شيئا نسيت ما هو.. قابلتني طفلة صغيرة في عمر رقية. ابتسمت لي ورفعت يديها وهي تقول : السلام عليكم يا جدي .

فرحت بها ، وانطلقت إليها لأحتضنها وأقبلها، ولكني لم أجدها .. درت حول نفسي- بحثا عنها، أحسست الدنيا تغيم وتتلاشى الأشياء .. استيقظت ثم رحت اغط في نوم عميق !

